بسم الله الرحمن الرحيم

شعارنا الوحيد إلى الإسلام من جديد

البعث الإسلامي

مجلة إسلامية شهرية جامعة

ذوالقعدة و ذوالحجة ١٤٣٦هـ ═══ أغسطس و سبتمبر ٢٠١٥م

العدد الرابع- المجلد الحادي والستون August, September 2015

ندوة العلماء

تأسست ندوة العلماء ودارالعلوم التابعة لها على مبدأ التوسط والاعتدال، والجمع بين القديم الصالح والجديد النافع، وبين الدين الخالد الذي لا يتغير، والعلم الذي يتغير ويتطور ويتقدم ، وبين طوائف أهل السنة التي لا تختلف في العقيدة والمنصوص، وقامت من أول يومها على الإيمان بأن العلوم الإسلامية علوم حية نامية ، وأن منهاج الدراسة خاضع لناموس التغير والتجدد، فيجب أن يتناوله الإصلاح والتجديد في كل عصر ومصر، وأن يزاد فيه، ويُحذف منه بحسب تطورات العصر، وحاجات المسلمين وأحوالهم.

الإمام العلامة الشيخ السيد أبوالحسن علي الحسني الندوي (رحمه الله)

أنشأها

فقيد الدعوة الإسلامية

الأستاذ محمد الحسني رحمه الله تعالى

في عام:١٣٧٥هـ -١٩٥٥م

رئاسة التحرير

سعيد الأعظمي الندوي

واضح رشيد الندوي

مساعدا التحرير:

محمد فرمان الندوي

محمد عبد الله الندوي

المراسلات

البعث الإسلامي

مؤسسة الصحافة والنشر

ص.ب.٩٣ لكناؤ (الهند) الفاكس: ٢٧٤١٢٢١-٢٧٤١٢٣١ — ٠٥٢٢

AL-BAAS-EL-ISLAMI

MAJLIS - E - SAHAFAT -WA- NASHRIYAT P. O. BOX: 93 Taigor Marg,
Lucknow. Pin:226007 U. P. (India) Fax: 0522-2741221,2741231
Mob: 9889336348 E-mail:nadwa@sancharnet.in

محتويات العدد

العدد الرابع- المجلد الحادي والستون -ذوالقعدة و ذوالحجة ١٤٣٦هـ- اغسطس و سبتمبر ٢٠١٥م

❖الافتتاحية :

ماذا يعني الفساد في الأرض ..... سعيد الأعظمي الندوي ٣

❖التوجيه الإسلامي :

الإسلام نظام متكامل الأستاذ السيد محمد الحسني (رحمه الله تعالى) ٧

لغة جديدة في قراءة الكون (النورسي نموذجاً) الدكتور إحسان قاسم الصالحي ١٠

حالات فساد العقيدة وكيفية صلاحها الشيخ الطاهر بدوي الجزائري ٢٧

❖الدعوة الإسلامية :

أثر القرآن الكريم في النثر الجزائري الحديث الدكتور محمد مظهر عالم الندوي ٣٥

أيام التشريق ..... أيام طاعة لله د. يوسف جمعة ٣١

ممارسة النشاط الخلقي : عبادة وفريضة الدكتور محمد مبين سليم الندوي الأزهري ٣٤

❖ الفقه الإسلامي :

المذاهب الفقهية وأصولها الدكتور خورشيد أشرف إقبال الندوي ٥٢

❖ دراسات وابحاث :

فصول جزيرة العرب وأمطارها العلامة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي ٦٨

إسهامات علماء الأندلس في خدمة التاريخ والتراجم ..... الأستاذ محمد سيف الإسلام بوفلاقة ٧٦

النزعة الاجتماعية في الرواية العربية السعودية الدكتور صهيب شكيل أحمد خان ٨٥

❖ صور وأوضاع :

الأطماع الاستعمارية مصدر الاضطراب السياسي ..... الأستاذ محمد واضح رشيد الحسني الندوي ٩٠

❖ إلى الإسلام من جديد :

الإسلام هو الحلُّ محمد فرما ن الندوي ٩٤

❖ أخبار اجتماعية وثقافية :

جولة علمية دعوية في جنوب كيرالا الدكتور عزالدين الندوي ٩٦

❖ إلى رحمة الله تعالى :

١ فضيلة الشيخ السيد شبير عطا الندوي في ذمة الله تعالى قلم التحرير ٩٧

٢ رحيل فضيلة الأخ الأستاذ السيد نصّار رفيع الندوي إلى رحمة الله تعالى " " ٩٨

٣ فضيلة الشيخ عبدالمتين الفاروقي إلى رحمة الله تعالى " " ٩٩

٤ الشيخ محمد شمشاد الحسن والد الأخ جواد الحسن الندوي إلى رحمة الله تعالى " " ٩٩

٥ الأستاذ محمد وسيم خان الندوي إلى رحمة الله تعالى " " ٩٩

٦ الأمير سعود الفيصل آل سعود إلى رحمة الله تعالى " " ١٠٠

الافتتاحية

بسم الله الرحمن الرحيم

ماذا يعني الفساد في الأرض ؟!

في العالم القديم والعالم الحديث

لقد كان وجود النوع البشري من آدم عليه السلام الذي اختاره الله تعالى أول أساس للعالم البشري ، ورفع مكانته بالخلافة في الأرض التي أكرمه بها وأمر الملائكة بالسجود له ، ثم إن الله سبحانه وتعالى كرم بني آدم بعد هذه البشارة العظيمة للخلافة ، وعمر العالم من بنيه لكي يقوموا بعمارة العالم على قواعد الخلافة التي تتلخص في التسبيح والتقديس ، ذينك العنصرين اللذين يتميز بهما الملائكة لرب العالمين عن غيرهم ، وقد كانوا يرون أن انتشار هذه الخلافة بذرية آدم عليه السلام قد يكون سبباً للفساد في الأرض وسفك الدماء فيما بين الناس ، ولكن الله سبحانه وتعالى رفض هذا الرأي للملائكة وأقنعهم بقوله: " إني أعلم ما لا تعلمون " .

ومن هنا يتوضح أن الفساد في الأرض وسفك الدماء من غير حق ، طبيعة بني آدم إذا لم يتلقوا تعاليم الخلافة ومطالبها ولم يدرسوا حقيقة الحياة الإنسانية وقيمة وجودها لبناء هذا العالم ، وقد نظم الله سبحانه لشرح هذه التعاليم وبيان حقيقة الحياة والإنسان بعثة الأنبياء والرسل على اختلاف الزمان والمكان ، فعُرف إبراهيم السلام بدور عظيم مثالي لا ينساه تاريخ الدين الإبراهيمي الذي كان يتميز بتوحيد الرب تبارك وتعالى، وقد أعلن مدوياً مجلجلاً في الأوساط الوثنية والبيئات الصنمية ، وفي مراكز نحت الأصنام وفي أسواق البيع والشراء ومتاجرة الشرك ومحاربة التوحيد فقال : " إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَآ أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ " وعبر الله سبحانه الشرك بالظلم ، فقال : " إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ " ، وقال " إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ " وقال تعالى : " الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ . وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ آتَيْنَاهَآ إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ " ، ويتحدث الله سبحانه عن سليل إبراهيم ممن هداهم وأنقذهم من الشرك وما إليه ، وهو يمن بذلك على إبراهيم عليه

السلام فيقول : ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاً هدينا ، ويتخلل ذلك ذكر الأنبياء والرسل الآخرين ، ممن هداهم وأكرمهم بإحسان العبادة والصلاح والورع والهدى فقال : وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ . وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ " (الأنعام : ٧٩ – ٨٨) .

كلما ضعفت عقيدة التوحيد وتسرب إليها شيئ مما يشبه الشرك أو يؤدي إلى شرك جلي أوخفي ، ويكدر صفو التوحيد والتوجه الكامل إلى الله تعالى ، أنتج نوعاً من الفساد قد يكون محدوداً بادئ بدء ولكنه يتسع على مر الأيام إذا كان المرء لم يشعر به وعاش في غفلة ونسيان ، حتى يتفاقم ذلك الفساد ويتشكل بفساد في الأرض ، وأول علامة لذلك تبدو في صور شتى من الظلم والطغيان ، والحيد عن الطريق المألوف إلى طرق معوجة ، وإلى ضلالات وفتن منوعة تتمثل أحياناً حروباً دامية ومعارك مفرضة لا أساس لها إلا الضلال والانحراف عن القصد ، واتباع السبل التي تفرق بين الناس، وتمزق وحدة الإيمان ، وتوزعهم شتايت وتنتهي بهم إلى العداء وسفك الدماء .

شهد التاريخ البشري وقائع هذه الظواهر المثيرة للفساد بمعناه الشامل في أدواره وعهوده ، ومن لا يدري الظروف الوحشية التي اجتاز بها النوع البشري ما قبل التاريخ وفي أيام الفراعنة والنماردة ، ممن ملكوا زمام العالم واستعبدوا الإنسان وعاملوه بأشد ما يعامل به وحوش الغابات الضواري، ذلك في تاريخ القرون المظلمة التي ذهبت أدراج الرياح والأعاصير واختفت في الرسوم والأحجار ، وكذلك حدثت عوامل الشر والفساد في جميع الأقوام والأمم التي انحرفت بها الطرق وحاد أهلها عن الحق وتناسوا ما عليهم من واجبات العقل والدين ، وظنوا أنهم خلقوا ليُعبدوا ، لا ليَعبدوا الذي خلقهم من نطفة قذرة وقطرة مذرة ، هكذا كان تاريخ الإنسان في كل عصر تغلب فيه الفساد على الصلاح ، والشر على الخير، فقد رأت عيون الدنيا نماذج مخيفة ذات دلالات واسعة من الكبر والبغض والحسد والعنف والرياء ، حيث ظهر هذا الإنسان المدل في أشكال شتى من الإله

والإمبراطور والعمالقة ، وكقوة عالمية كبرى ، ولكنه سرعان ما أهلكته يد الزمان وأباده عنصر ضعيف (بمشيئة الله تعالى) فلم يكن شيئاً بعد أن كان كل شيئ ، ونسيه الزمن وطوي في غضون النفور والكراهية .

ولنعد قليلاً إلى عهود الأنبياء والرسل السابقين والأمم التي أرسلوا فيها ، كيف كان أهلها موضع النصح والخير والعطف والحب والإيمان لديهم ، ولكنهم تمردوا عليهم ، وعاثوا في الأرض فساداً وحاربوا أهل الصلاح والتقى ، ورجعة قليلة إلى عهد ما قبل الإسلام حيث نلتقي بأهل الجاهلية الأولى ، متفرقين بين القبائل وعائشين عصبيات جاهلية من الرفعة والضعة ، ومن العلو في النسب والسفل فيه ، فكانت تتصادم العصبيات وتحوم حول المفاخر والمآثر والفضائل والرذائل والسيادة والعبودية ، الواقع الذي أنتج خلافات وأشعل نار الحقد والعداء ، فتمثلت بصور المقاتلات والمعارك الساخنة والحروب القبلية التي ذهب ضحيتها نفوس كل من الرجال والنساء وسالت الدماء أنهاراً ، وتعمقت جذور العداء والبغضاء إلى الأعماق ، مما أورث مجتمعاً ساخناً يعيش على فوهة بركان ينذر بخطر مستطير ، وإن لنا في أيام العرب الجاهلية الأولى شهادة كافية لمعرفة هذه الحقائق المعاشة ، وما يوم داحس والغبراء وما يوم حليمة بسرّ .

كل ذلك كان من نتاج الحيد عن طريق الإيمان بالله وتقواه وتكذيب وعد الله بالأمن والرخاء والحب والإخاء ، ذاك أن الله سبحانه وعد بفتح أبواب البركات من السماء والأرض للذين آمنوا به واتقوه كما قد قال تعالى : " وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ " (الأعراف : ٩٦) ، فهل كان ما قاله الملائكة يوم بشرهم الله سبحانه بأنه جاعل في الأرض خليفة : " أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ " هل كان ذلك إشارة إلى طبيعة الإنسان الذي يعيش في هذه الدنيا بدون تسبيح وتقديس لله تبارك وتعالى ، إنما هي طبيعة فساد في الأرض ، ذاك أن الإنسان بالطبيعة راكن إلى الفساد وسفك الدماء ما لم تكن صلته بالرب تبارك وتعالى صلة قوية ، صلة العبودية المخلصة والخضوع الكامل أمام قدرته والشكر لنعمة الإنسانية التي أسبغ خلعتها عليه ، كما هو شأن الملائكة المخلصين الأوفياء مع ربهم العلي العظيم .

ونحن في عصر ظهر فيه الفساد وسفك الدماء في بلاد المسلمين بغاية من الشدة والقسوة ، فإن وكالات الأنباء لا تزال تفيد مثل هذه المعلومات في ضوء مؤسسة اللاجئين للأمم المتحدة ، فقد جاء في التقارير الآتية من هذه المؤسسة التابعة للأمم المتحدة بأن معظم لاجئي سوريا النازحين إلى الأردن ولبنان وتركيا يتجاوز عددهم الآن أربعة ملايين شخص ولا يزال هذا العدد يتزايد مع مر الأيام والليالي ، مما أدى إلى أن عدد المشردين يبلغ الآن إلى أكثر من سبعة ملايين شخص في سوريا وحدها ، ممن نزحوا عن ديارهم وأوطانهم باحثين عن الملاجئ التي يلجأون إليها مع عائلاتهم .

وقد أكدت وكالات الأنباء التابعة للأمم المتحدة ، أن هذا العدد الهائل من اللاجئين أول أزمة خلال ٢٥ عاماً ، وبالإمكان أن يتزايد هذا العدد في المستقبل بصورة مخوفة ، وذاك أكبر عدد منه نتيجة منازعة سياسية واحدة فقط ، لا ريب أن هذا العدد الهائل للاجئين السياسيين من هذه الدولة المسلمة تعيش معاناة أشد من الفقر والجوع ، ومع تزايد هذا العدد تأثرت تركيا من الناحية الإنسانية إلى حد كبير ، نتيجة للصراع المستمر بين الأكراد والدولة الإسلامية الداعشية ، إن تركيا أول بلد إسلامي يوسع صدره لاستقبال أكبر عدد من النازحين من سوريا ، وقد يبلغ هذا العدد الآن إلى نحو مليونين من اللاجئين في هذا البلد المسلم .

إذا قمنا بدراسة الوضع المتأزم والمستمر من مدة أعوام عديدة على أرض هذه الدول التي كانت تعتبر جنة أرضية بحدائقها وجناتها وأنهارها وعيونها ، فسوف لا نرجع منها إلا بعيون باكية وقلوب دامية وعواطف مكلومة . " كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَاكِهِينَ . كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ . فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ " (الدخان : ٢٥ – ٢٩)

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

سعيد الأعظمي الندوي
١٤٣٦/٩/٢٥ هـ
٢٠١٥/٧/١٣ م

التوجيه الإسلامي

الإسلام نظام متكامل

بقلم : الأستاذ السيد محمد الحسني (رحمه الله تعالى)
رئيس تحرير المجلة (سابقاً)

الإسلام – كما نعلم ونعتقد – وحدة لا تتجزأ ، ولكن هذه الوحدة تشمل في الوقت ذاته وجهات مختلفة وتحتوي على وجوه وألوان وأنواع من النظم والمعاملات والتشريعات تجتمع وتتحد في أصلها وروحها وجوهرها وتلتقي على نقطة واحدة وهدف واحد .

فالإسلام عبادة في المسجد وكفاح في المجتمع ، وجهاد في الميدان، وهو إيمان في ناحية ، تشريع في ناحية أخرى ، عاطفة في مكان، وتفكير وتدبر في مكان آخر ، فيه الصلاة ، وفيه الزكاة ، وفيه الحج ، وفيه الصدقة ، وفيه البر والإحسان ، وفيه التضحية والإيثار، والاستقامة والثبات ، وفيه الدعوة إلى الله ، والنضال في سبيله، وهو دين الفرد ، ودين الجماعة ، ودين الدولة والمجتمع ، وله في كل ذلك أحكام وتشريعات يتضمن لجميع هذه النواحي النجاح والازدهار ، والاستقرار ولكن هل هذه النواحي غايات مستقلة بذاتها ، وهل هذه النظم والتشريعات قائمة بنفسها ؟ كلا ، إن كل هذه النواحي تنبع من أصل واحد وتدل على رمز واحد ذلك هو رمز الإسلام والإيمان، والطاعة والانقياد .

ومثل الإسلام في ذلك كمثل جنة عالية واسعة ذات أزهار وثمار ينتقل فيها الرجل من جميل إلى أجمل ومن حسن إلى أحسن ، يأخذ بلبّه كل زهرة جميلة ، وتلفت أنظاره كل وردة عطرة ، وتفريه كل روضة من روضات هذه الجنة الواسعة وتبهره بجمالها وروعتها وبهائها ، ولكنه يعلم أن هذا الجمال جزء صغير من ذلك الجمال المحيط وناحية واحدة من نواحيه الكثيرة ، ولون واحد من ألوانه الزاهية .

كذلك شأن الإسلام ، فكل ركن من أركانه ، وكل تشريع من تشريعاته يرمز إلى وحدة شاملة تحيط بجميع أجزائها .

يعيش فيه الفرد في استقرار وسلام ووئام (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) [1] وتعيش فيه الأسرة في غاية من الطمأنينة والاستقرار (كلكم راع

[1] رواه البخاري ومسلم في كتاب الإيمان .

وكلكم مسئول عن رعيته) [1] ويعيش فيه المجتمع عيشة أخوية متحابة صافية لا غبار عليها ، طاهرة لا دنس فيها لا تترعرع فيه السيئات ولا تزدهر فيه المنكرات (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه) [2] (ومن أحب لله فقد استكمل الإيمان) (انصر أخاك ظالماً كان أو مظلوماً) .

وهكذا يبني الإسلام صرحاً شامخاً بديعاً ، كل لبنة فيه وضعت في محل كأنها خلقت له ، وينشئ نظاماً شاملاً كاملاً يتكفل حاجات الإنسان ومطالبه ومرافقه في كل موطن من الحياة ، وكل منعرج من التاريخ ، ويعطيه نوراً يمشي به في الناس (أَفَمَن جَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا) .

إن الإسلام أيها السادة دين إلهي أنزله الله على عباده لينالوا رضا الله بالسلوك عليه والاستمساك بعروته الوثقى ، ولذلك هو معصوم من هذه الأخطاء التي تقع فيها النظريات الإنسانية والمذاهب المادية بين حين وحين ، إن الله سبحانه وتعالى خالق هذا الإنسان وهذا الكون ، وهو عارف بماضيه وحاضره ومستقبله (أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (وَأَنَّه بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) .

إن أكبر ميزة يمتاز بها الإسلام عن الأديان ، والمذاهب المادية جميعاً هو أنه ائتلاف في اختلاف ، ووحدة في افتراق ، ونظام كامل شامل لجميع نواحي الحياة صغيرها وكبيرها ، وعنده نظام لكل طبقة من طبقات المجتمع رجالاً ونساءً ، وشيوخاً وشباناً وأميين ، ومثقفين ، وأغنياء ومساكين كل امرئ يجد فيه ما يروي به غلته ، ويشفي به علته ، ويحل به مشكلته ، وينوّر به قلبه وحياته ، ويحظى برضا الله سبحانه وتعالى .

وحادث واحد من التاريخ الإسلامي يلقي الضوء على هذا الواقع ، ويشرحه شرحاً كاملاً .

(.... أن ناساً قالوا يا رسول الله : ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم قال أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به : إن بكل تسبيحة صدقة وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة وفي بضع أحدكم صدقة ، قالوا : يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر ؟ فكذلك إذا

---

[1] رواه البخاري في النكاح ومسلم في الإمارة .

[2] رواه مسلم في الإيمان .

وضعها في الحلال كان له أجر) [1] .

إن هذا الحادث الواحد يدلنا على أن الإسلام نظام فريد في نوعه، نظام لم يسبق له مثيل في التاريخ ، إنه نظام روحيّ فهو متجاوب مع أشواق الإنسان الروحيّة ويملأ فراغه المعنوي ، ونظام إنساني يقيم العلاقات الإنسانية على أسس روحية متينة تحفظ المجتمع من الزلل والانحراف ، والزيغ والضلال ، والفرقة والانشقاق والعداوة والبغضاء ، بل إنه مودة ورحمة وتعاطف وإخاء ، وسلام ووئام ، ووحدة شمل ، وجمع كلمة ، ونظام اقتصادي نظيف ، لا يفرق بين الغني والصعلوك ، والمالك والمملوك ويتخذ تدابير وتعليمات حتى لا يكتنز المال في يد شخص واحد أو طبقة خاصة ، ولا يقيس الناس بمقياس الثروة والترف ، والمال والجاه ، بل أن ينظر إلى الإيمان والعمل الصالح (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) (إنما المؤمنون إخوة) وإنه نظام سياسي لا يسمح لحزب خاص أو لعصبة من الناس أن يتصرفوا في أموال الشعب حسب أهوائهم ، بل إن الأمر فيه شورى ، ولاة الحكم خلفاء الله في الأرض ، والأمناء على الناس ، والجمهور فيه جمهور قوي الأخلاق ، قوي الإرادة قوي الأعمال ، لا يخاف في الله لومة لائم ، ويكون شعاره (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) و (أطيعوا ولو ولّي عليكم عبد حبشي) فالعبرة بالنيّة وعمل الخير لا باللون ، والجنس ، ولا بالعصبيات العمياء والنعرات الجاهلية .

هذا هو الإسلام الصحيح ، وهذا هو الإسلام الكامل ، وتلك هي وحدة الإسلام الجوهرية وروحه الأصيلة التي تتجلى في كل فرع من فروعه ، وكل تشريعات من تشريعاته ، وفي كل ناحية من نواحيه .

عالم برئ نظيف من اصطدام المصالح والأهواء ، وحب الاستعلاء، ومجتمع صالح خاشع ، لا انحراف فيه ولا اضطراب ولا ضغائن فيه ولا أحقاد، ولا تمرد فيه ولا اعتداء ، كل يؤدي واجبه وينسى حقه ، ويحاول بكل ما يملك من حول وطول ، أن ينفع إخوانه الآخرين ، ومجتمع هذا شأنه لا يجد السوء إليه سبيلاً ولا يجد الشيطان فيه أرضاً صالحة لغرس المنكر والفحشاء، ولا يمكن للمنكرات والسيئات والأمراض الخلقية والمعنوية أن تعيش فيه طويلاً ، لأن هذه الأمراض لا تجد نافذة للدخول ، لأن الإسلام – حارس هذا المجتمع – لم يترك ناحية ولم تفته ثغرة يتسلل بها الشيطان وأعوانه في هذا المجتمع النظيف الصالح ويبذروا فيه بذور الفتنة والفساد والسيئات والمنكرات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

---

[1] رواه مسلم .

لغة جديدة في قراءة الكون
النورسي نموذجاً

الدكتور إحسان قاسم الصالحي
مركز رسائل النور للدراسات والبحوث ، اسطنبول

إن ما نستعرضه من منهج النورسي في إدراك المعاني الجليلة للقرآن الكريم ليس إلا جانباً من جوانبه الكثيرة ، وهو جانب التطابق بين آيات الله تعالى في الكون وآياته الكريمة في القرآن ، وكيفية قراءتهما معا . أما جوانبه الأخرى فكل منها بحاجة إلى بحث مستقل أو كتاب .

مقدمة

نزل القرآن الكريم والبلاغةُ في قمة مجدها ، فتحدى ببلاغته بلاغةَ عصره وكلَّ العصور التالية ، ودعا بلغاءَ العرب إلى معارضته ، والإتيان ولو بأقصر سورة من مثله .

ولعل السؤال الذي يطرح نفسه هو : إن سر إعجاز القرآن الكريم هو في بلاغته الفائقة ، بينما لا يرقى إلاّ واحد من الألف من علماء البلاغة الفطاحل إلى إدراك هذا السر ، مع أنه كان ينبغي أن يكون لكل طبقة من طبقات الناس حظُّها من هذا الإعجاز ؟

ويواجَه النورسي بهذا السؤال ، فنوجز إجابته بالآتي :

إنَّ للقرآن الكريم إعجازاً لكل طبقة من طبقات الناس ، إلاّ أنه يُشعر إعجازَه هذا بأسلوب معين وبنمط خاص . فيبين إعجازه لأربعين طبقة من طبقات الناس. فمثلاً يبيّنه ؛ لأهل البلاغة والفصاحة ، ولأرباب الشعر والخطابة ، ولطبقة الكهان الذين يدّعون أنهم يخبرون أشياء عن الغيب ، ولأهل التاريخ ، ولعلماء الاجتماع والسياسة والحكم ، وللذين توغلوا في المعارف الإلهية والحقائق الكونية ، ولأهل طرق الولاية والتصوف . .

وهكذا يفتح القرآن أمام كلِّ طبقة من الطبقات الأربعين للناس نافذةً مطلّة على إعجازه الباهر . بل إنه يبين إعجازه حتى لأولئك الذين لا يملكون سوى قدرة الاستماع من دون أن يقدروا على التوغل في الفهم من عوام الناس ، بل حتى العامي الجاهل الذي لا يفهم شيئاً من معاني القرآن الكريم يشعر بإعجاز القرآن من عدم سآمه في التلاوة . وحتى الأطفال لا يُحرَمون من إعجاز القرآن ،

فيُظهر لهم إعجازَه في قدرتهم على حفظه في عقولهم اللطيفة الصغيرة . بل حتى المرضى والذين هم في سَكَرات الموت ممن يتألمون بأدنى كلام ، تراهم يستمعون إلى القرآن الكريم وتنزل آياتُه على أسماعهم كأنه السلسبيل .

نحصل مما سبق : أن القرآن الكريم لا يدَع أحداً محروماً من تذوق إعجازه ، فلكلٍّ طبقة من أربعين طبقة من الطبقات المتباينة للناس لهم حظهم من هذا الإعجاز أو يُشعرهم القرآن بإعجازه .(١)

استاذية القران الكريم :

لقد استطاع النورسي بفضل الله أن يصقل موهبته الفذة التي ظهرت عليه منذ نعومة أظفاره ، سواء في تنقله لتلقي العلم أو في حفظه المتون التي بلغت الثمانين متناً في العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية والصرفة المعاصرة، زيادة على اطلاعه الواسع على الأدب والبلاغة العربية في كتب الجاحظ والزمخشري والسكاكي ، وعبد القاهر الجرجاني حيث أعجب بنظريته المشهورة في النظم أيما إعجاب . فظهر له أن المفسرين الذين سبقوه كالزمخشري والرازي وأبي السعود طبقوا هذه النظرية على جزئيات معينة من دون أن يدخلوا إلى تفاصيلها الكاملة . فألّف تفسيره "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز " باللغة العربية في ساحة القتال مع الروس في الحرب العالمية الأولى . وطبق فيه نظرية النظم تطبيقاً تفصيلياً شاملاً من حيث هي منظومة متكاملة تشمل ترتيب السور والآيات والألفاظ سورة بعد سورة وآية بعد آية ولفظا بعد لفظ ومن حيث المباني والمعاني . فأتى بالجديد الرائع من الحقائق مما لم يسبق إليها أحد من قبله . كما شهد على ذلك علماء أفاضل .(٢)

رجل القدر في حياة أمة :

لم يكن النورسي عالما من العلماء الذين يشبعون قضية من القضايا درسا وتحليلا ثم يؤلفون حولها كتاباً ، بل هو رجل القدر في حياة أمة(٣) ، إذ لما عصفت بتركيا أحداث جسام فعاشت دوراً حالكاً جداً من الطغيان الغاشم والعداء الصريح الشرس للدين والسعي المتواصل لمحاولة إطفاء نور الله وإمحاء

---

(١) انظر تفصيله في المكتوبات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي ص ٢٤٤- ٢٥٠. سوزلر، إسطنبول ١٩٩٢.

(٢) محاضر جلسات المؤتمر العالمي الثالث لبديع الزمان سعيد النورسي "تجديد الفكر الإسلامي في القرن العشرين وبديع الزمان سعيد النورسي" والرابع "نحو فهم عصري للقرآن الكريم: رسائل النور أنموذجاً" أيلول ١٩٩٥- ١٩٩٨ إسطنبول.

(٣) اقتباس من اسم الكتاب الذي ألفه أخونا الأستاذ أورخان محمد علي في سيرة حياة الأستاذ النورسي.

شريعته ، تحت أسماء مختلفة ، قدّر الله سبحانه وتعالى للنورسي عملا جليلا استطاع فيه أن يضع مسلمي بلده في ظروف عصره وجها لوجه مع القرآن الكريم ، يستلهمون منه سلوكهم ودستور حياتهم، من دون أن يشغلهم بقضايا بلاغته وإعجازه اللغوي بالتحقيق في جزئيات دقيقة لا يقوى على فهمها إلا الخواص جداً والتي لم تكن مشكلة العصر، يقول النورسي : " ساقني القدر الإلهي إلى طريق عجيب ، صادفتُ في سيري فيه مهالك ومصائب وأعداء هائلة . فاضطربتُ ، فالتجأت بعجزي إلى ربي . . فأخذت العنايةُ الأزلية بيدي ، وعلّمني القرآنُ رشدي ، وأغاثتني الرحمة فخلصتني من تلك المهالك "[1].

فلولا القدر الإلهي واللطف الرباني على هذه الأمة بانتشار رسائل النور لبقي الجمهور الأعظم من المسلمين بمعزل عن الاستفادة من حقائق القران ، أمام الصراع الفكري الرهيب والغزو المادي الجاحد .

في هذا الوسط الحالك المدلهم بالخطوب ظهر تفسير جديد بمنهج جديد إنقاذا لإيمان الأمة المنكوبة .

رسائل النور لغة جديدة ومنهج جديد لإعجاز القرآن :

نشرت الصحف ما قاله وزير المستعمرات البريطاني[2] في مجلس العموم :

"ما دام هذا القرآن بيد المسلمين فلن نحكمهم حكماً حقيقياً ، فلنسع إلى نزعه منهم" . فثارت ثائرة النورسي واحتدّ وغضب . . وغيّر اهتمامه من جراء هذا الانقلاب الفكري فيه . . جاعلاً جميع العلوم المتنوعة المخزونة في ذهنه مدارج للوصول إلى إدراك معاني القرآن الكريم وإثبات حقائقه . ولم يعرف بعد ذلك سوى القرآن هدفاً لعلمه وغاية لحياته . وأصبحت **المعجزة المعنوية للقرآن الكريم** دليلاً ومرشداً وأستاذاً له[3] حتى إنه أعلن لمن حوله : " لأبرهننّ للعالم بأن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها "[4].

---

(١) المثنوي العربي النوري، بديع الزمان سعيد النورسي، تحقيق إحسان قاسم الصالحي ص ١٠٤. سوزلر، إسطنبول ١٩٩٤.

(٢) وليم جلادستون (١٨٠٩ - ١٨٩٨ م) تقلد مناصب وزارية متعددة، تعمق في دراسة الدين فكان مؤلفه الأول (الدولة وعلاقتها بالكنيسة). عيّن رئيساً للوزراء أربع مرات. ألغى الكنيسة الايرلندية.(باختصار عن: الموسوعة العربية الميسرة)

(٣) وقد ذكر مصطفى صونغور(ممن لازموا النورسي) لي مرارا ما سمعه من أستاذه : " لقد أصبح ما يقرب من تسعين كتاباً حفظته مدارج للصعود إلى حقائق القرآن الكريم. ولما بلغت تلك الحقائق شاهدت أن كل آية كريمة تحيط بالكون وتستوعبه. فلقد كفاني القرآن الكريم مراجعة أي شيء آخر".

(٤) سيرة ذاتية، بديع الزمان سعيد النورسي، إعداد إحسان قاسم الصالحي ص ٦٥ سوزلر، إسطنبول ١٩٩٨.

أعلن النورسي إعجاز القرآن بلغة جديدة ومنهج جديد ، منهج مستوحى من القرآن نفسه ، فتوجه بكليته وبقية حياته العامرة إلى القضية الأساس ، وهي **إنقاذ الإيمان** في عصر الغزو الفكري والصراع الرهيب ، فأنتج في هذا المجال أيما إنتاج من خلال "رسائل النور" التي وجهها إلى النشء الجديد . بأسلوب في غاية الوضوح ، وبهدوء علمي باهر ، وببيان ذوقي رفيع ، وبحجج عقلية دامغة ففدت البديل العصري الذكي لأسلوب إثبات إعجاز القرآن اللغوي والبياني والعقلي ، لأن ما أثاره الأعداء لم يكن يتصل بالطعن في بلاغة القرآن أو مناقشة ما يتعلق بإعجازه أو بتناسب سوره وآياته وكلماته . وإنما كان يركز على شن هجوم عام شامل على أصول الإيمان . فاستطاعت رسائل النور بفضل الله بأسلوبها الجميل الذي يفهمه الخواص والعوام إنشاء جيل مؤمن بالقران إيمانا لا يتزعزع ، فتمكن من الصمود أمام تلك الرياح الهوج . ذلك لأن رسائل النور" ليست مسائل علمية عقلية وحدها بل أيضا مسائل قلبية ، وروحية ، وأحوال إيمانية . . فهي بمثابة علوم إلهية نفيسة"[1].

يعلل النورسي السر في هذا التوجه إلى الأسلوب الجديد في رسائل النور بقوله "إن قسمًا من مصنفات العلماء السابقين وأغلب الكتب القديمة للأولياء الصالحين تبحث في ثمار الإيمان ونتائجه وفيوضات معرفة الله سبحانه ، ذلك لأنه لم يكن في عصرهم تحدّ واضح ولا هجوم سافر يقتلع جذور الإيمان وأسسه ، إذ كانت تلك الأسس متينة ورصينة .

أما الآن فإن هناك هجوماً عنيفاً جماعياً منظماً على أركان الإيمان وأسسه، لا تستطيع أغلب تلك الكتب والرسائل التي كانت تخاطب الأفراد وخواص المؤمنين فقط أن تصد التيار الرهيب القوي لهذا الزمان ، ولا أن تقاومه .

أما رسائل النور ، فلكونها **معجزة معنوية للقرآن الكريم** فهي تنقذ أسس الإيمان وأركانه ، لا بالاستفادة من الإيمان الراسخ الموجود ، وإنما بإثبات الإيمان وتحقيقه وحفظه في القلوب وإنقاذه من الشبهات والأوهام بدلائل كثيرة وبراهين ساطعة . حتى حكم كلُّ من ينعم النظر فيها : بأنها أصبحت ضرورية في هذا العصر كضرورة الخبز والدواء" [2].

منهج رسائل النور منهج قرآني :

لدى استقرائنا لرسائل النور نجد أن المؤلف يصرح مرارا وبإصرار أن منهج

---

[1] المكتوبات، ص ٤٥٩.

[2] الملاحق - ملحق قسطموني، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي ص ١٠٥ ، سوزلر، إسطنبول ١٩٩٥.

رسائل النور منهج قرآني مستوحى من القرآن وليس نابعاً من نفسه وفكره ، إذ يقول : "لا تحسبن أن ما أكتبه شيء مضغته الأفكار والعقول . كلا! بل فيض أفيض على روح مجروح وقلب مقروح ، بالاستمداد من القرآن الكريم ، ولا تظنه أيضاً شيئاً سيالاً تذوقه القلوب وهو يزول . كلا! بل أنوارٌ من حقائق ثابتة انعكست على عقل عليل وقلب مريض ونفس عمي" .[1] و" أنه مهما يظهر من قوة التأثير ، وبهاء الجمال في أسلوب كتاباتي ، فإنها ليست مني ، ولا مما مضغه فكري ، بل هي من لمعات " **ضرب الأمثال** "[2] التي تتلألأ في سماء القرآن العظيم ، وليس حظي فيها إلا الطلب والسؤال منه تعالى ، مع شدة الحاجة والفاقة ، وليس لي إلاّ التضرع والتوسل إليه سبحانه مع منتهى العجز والضعف . فالداء مني والدواء من القرآن الكريم "[3].

ويقول : " وكل ما في رسائلي من المحاسن ما هو إلاّ من فيض القرآن . ولله الحمد ، كان القرآن هو مرشدي وأستاذي في هذا الطريق . نعم! مَن استمسك به استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها" .[4]

ما كتبت إلا ما شاهدت :

يقول النورسي :" أقول تحديثاً بالنعمة وأداء للأمانة بأني لا أخدعكم ، إنما أكتب ما أشاهد أو أتيقن عين اليقين أو علم اليقين" .[5] فما كتبتُ إلاّ ما شاهدتُ . . بحيث لم يبق لنقيضه عندي إمكانٌ وهمي . .[6] إذ سلكتُ طريقاً غير مسلوك ، في برزخ بين العقل والقلب" .[7]

وهو يعتقد جازما أن الله سبحانه وتعالى قد منح رسائل النور ، التي هي لمعات معنوية من إعجاز القرآن الكريم خاصية الدواء الشافي والترياق المضاد لسموم زندقة الضلالة في هذا العصر .[8]

لغة الكائنات يفهمها كل إنسان :

والآن لنضع الواقع الذي كان يعيشه النورسي أمامنا ؛ فاللغة العربية

---

(1) المثنوي العربي النوري، ص ٣١٨.
(2) ألف الدكتور الشفيع الماحي أحمد كتابا حول " الأمثال في رسائل النور".
(3) المكتوبات ص ٤٨٧
(4) المثنوي العربي النوري ص٢٠٦
(5) المثنوي العربي النوري ص ٣١٨
(6) المثنوي العربي النوري ص ١٠٨
(7) المثنوي العربي النوري ص ٣٥
(8) انظر المكتوبات ص ٢٨

محظورة والأمة باتت أمية بكاملها بين عشية وضحاها . والغزو الفكري على قدم وساق ، والكتب الإلحادية في متناول الجميع . والابتذال في الصحف والإعلام غدت من الأمور المألوفة المعتادة .

ففي هذا الجو المظلم القاتم لو كان النورسي يؤلف مجلدات ضخمة في الإعجاز البلاغي للقران الكريم ما كان المستفيد منها إلا نخبة من خواص الخواص . ولكن المولى الكريم تفضل على الأمة التركية والإسلامية بعامة ، فساق القدر الإلهي العادل الحكيم النورسي إلى بيان إعجاز المعنى للقران أو كما يطلق هو **الإعجاز المعنوي للقرآن** فألف رسائل النور بمنهج جديد .

فمن أين استقى هذا المنهج الجديد . ؟

يقول النورسي : "**إن الكائنات في غاية البلاغة قد أنشأها وأنشدها صانعُها فصيحة بليغة ، فكل صورة وكل نوع منها - بالنظام المندمج فيه - معجزةٌ من معجزات القدرة**" [1]

بمعنى أنه أدرك أن الإنسان لكي يكون قريبا من روح القرآن الكريم، عليه ألاّ يقف عند إعجازه اللغوي والبلاغي فحسب ، بل عليه أن يمضي معه إلى حيث يأخذه إلى روحه السارية في الكائنات كلّها بل السارية في كل جزء من جزئياتها . وذلك بالتزود بالعلوم الحديثة ، حيث نراه يقول :

" إنَّ البشرية في أواخر أيامها على الأرض ستنساب إلى العلوم ، وتنصبّ إلى الفنون ، وستستمد كل قواها من العلوم والفنون فيتسلم العلمُ زمام الحكم والقوة " [2]

فما حقيقة العلوم ؟

حقيقة العلوم تستند إلى الأسماء الحسنى :

يقول النورسي : " أن لكل كمال ، ولكل علم ، ولكل تقدم ، ولكل فن - أياً كان - حقيقة سامية عالية . وتلك الحقيقة تستند إلى اسم من الأسماء الحسنى ، وباستنادها إلى ذلك الاسم - الذي له حُجُب مختلفة ، وتجليات متنوعة ، ودوائر ظهور متباينة - يجد ذلك العلمُ وذلك الكمال وتلك الصنعة ، كلٌ منها كمالَه ، ويُصبح حقيقةً فعلاً ، وإلاّ فهو ظل ناقص مبتور باهت مشوش .

---

[1] إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، بديع الزمان سعيد النورسي، تحقيق إحسان قاسم الصالحي ص ١١٩. سوزلر، إسطنبول ١٩٩٤.

[2] الكلمات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي / ص ٢٩٥، سوزلر، إسطنبول ١٩٩٢.

فالهندسة – مثلاً- علم من العلوم ، وحقيقتُها وغاية منتهاها هي الوصول إلى اسم (العدل والمقدِّر) من الأسماء الحسنى ، وبلوغ مشاهدة التجليات الحكيمة لذلك الاسم بكل عظمتها وهيبتها في مرآة علم (الهندسة) .

والطب – مثلا - علم ومهارة ومهنة في الوقت نفسه ، فمنتهاه وحقيقتُه يستند أيضاً إلى اسم من الأسماء الحسنى وهو (الشافي) . فيصل الطب إلى كماله ويصبح حقيقة فعلاً بمشاهدة التجليات الرحيمة لاسم (الشافي) في الأدوية المبثوثة على سطح الأرض الذي يمثل صيدلية عظمى .

والعلوم التي تبحث في حقيقة الموجودات – كالفيزياء والكيمياء والنبات والحيوان . . هذه العلوم التي هي (حكمة الأشياء) يمكن أن تكون حكمة حقيقية بمشاهدة التجليات الكبرى لاسم الله (الحكيم) جلّ جلاله في الأشياء، وهي تجليات تدبير ، وتربية ، ورعاية . وبرؤية هذه التجليات في منافع الأشياء ومصالحها تصبح تلك الحكمة حكمة حقاً ، أي باستنادها إلى ذلك الاسم (الحكيم) وإلى ذلك الظهير تصبح حكمة فعلاً ، وإلاّ فإما أنها تنقلب إلى خرافات وتصبح عبثاً لا طائل من ورائه أو تفتح سبيلاً إلى الضلالة ، كما هو الحال في الفلسفة الطبيعية المادية"[1] .

ولبلوغ رؤية تلك التجليات يقول النورسي :

نوع النظر كالنية يقلب العادات إلى عبادات :

كما تصبح العادات المباحة بالنية عبادات . كذلك تكون العلوم الكونية بنوع النظر معارفَ إلهية .

فإذا ما نظرت إلى هذه العلوم نظراً حرفياً[2] (أي مفتقرا إلى معنى في غيره) مع دقة الملاحظة ، والتفكر العميق ، من حيث الصنعة والإتقان . أي أن تقول : "ما أبدعَ خلقَ هذا! ما أجملَ صنعَ الصانع الجليل!" بدلاً من قولك : "ما أجملَه" . نعم ، إذا ما نظرت إلى الكون من هذه الزاوية تجد أن نقوش المصوّر الجليل ولمعةَ القصد والإتقان في نظامه وحكمته تنوّر الشبهات وتبدّدها . وعندها تتحول العلوم الكونية إلى معارف إلهية .

ولكن لو نظرت إلى الكائنات بالمعنى الاسمي ، ومن حيث "الطبيعة" أي

---

[1] الكلمات ص ٢٩١

[2] فالحرف يُعرّف في النحو: ما دلّ على معنى في غيره، أما الاسم فيعرف : ما دلّ على معنى في نفسه غير مقترن بزمان. والمقصود أن النظرة القرآنية إلى الموجودات تجعلها بمثابة حروف تعبّر عن معنى تجليات الأسماء الحسنى والصفات الجليلة للخالق العظيم سبحانه.

أنها تولّدت بذاتها ، فمندها تتحول دائرة العلوم إلى ميدان جهل" [1].

ومن هنا نرى أن :

تطور العلوم يزيد رقعة الدين توسعاً :

نعم ، إن في رسائل النور كثيراً من الأمثلة العلمية المادية من الواقع الملموس كدليل على المسائل الإيمانية ، إذ كلما أتى العلم- أيا كان ذلك العلم- بالجديد فتح آفاقا جديدة لإدراك تجليات من أنوار اسم من الأسماء الحسنى . فكلما تقدم العلم وأعلن للأوساط حكماً جديداً بكشفه عن كيفية نشوء الحوادث أصبح وسيلة لفهم أوضح للمسائل الإيمانية . ولهذا يشيد النورسي بالتقدم العلمي والكشوفات الحديثة بقوله: "فمرحى لجهود المعرفة الفياضة وانتشارها ، وبخ بخ لعناء العلوم الغيورة ، اللتين أمدّتا تحري الحقائق وشحنتا الإنسانية ، وغرستا ميل الإنصاف في البشرية . . ." [2].

ولهذا فـ" إن تطور العلوم ، على خلاف ما يَظُن غيرُنا ، لا يضيّق من رقعة الدين ، بل يزيدها توسعاً ، ولا ينقص من تأثيره ، بل يزيده قوة ، ذلك أن العلوم، لما كانت جزءا داخلا في بنية الدين نفسها ، كانت الأطوار التي تتقلب فيها والتي يفضُل لاحقُها سابقَها ، تفتح في الدين آفاقا معرفية غير مسبوقة وترقى بفهمنا له درجات على قدر هذه الأطوار ، بل إنها تتعدى ذلك إلى كونها تجدّد قدرتنا على التدين وتنوّع سبُل تحققه لدينا " ." [3].

بل يذهب الأستاذ النورسي إلى أبعد من هذا فيستلهم من ذكر القرآن الكريم لمعجزات الأنبياء عليهم السلام ، أنهم خطوا بها قمةَ العلوم ونهاية حدودها .

الأنبياء عليهم السلام بمعجزاتهم رواد العلوم :

"يبيّن القرآن الكريم أنَّ الأنبياء عليهم السلام قد بُعثوا إلى مجتمعات إنسانية ليكونوا لهم أئمةَ الهُدى يُقتدى بهم ، في رقيهم المعنوي . ويبين في الوقت نفسه أنَّ الله قد وضع بيد كلٍ منهم معجزة مادية ، ونَصَبَهم روّاداً للبشرية وأساتذة لها في تقدمها المادي أيضاً . أي أنَّه يأمر بالإقتداء بهم واتباعهم اتباعاً كاملاً في الأمور المادية والمعنوية ؛ إذ كما يحض القرآنُ الكريم الإنسان على الاستزادة من نور الخصال الحميدة التي يتحلّى بها الأنبياء عليهم السلام ،

---

[1] الكلمات ص ٨٦٨

[2] صيقل الإسلام، محاكمات عقلية، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي ص ٢٣.. سوزلر، إسطنبول ١٩٩٥.

[3] د. طه عبد الرحمن، العرض الذي ألقاه في منتدى الحكمة للمفكرين والباحثين في الرباط في ٢٠٠٢/١٠/٢٦.

وذلك عند بحثه عن كمالاتهم المعنوية ، فإنّه عند بحثه عن معجزاتهم المادية أيضاً يومئ إلى إثارة شوق الإنسان ليقوم بتقليد تلك المعجزات التي في أيديهم ، ويشير إلى حضّه على بلوغ نظائرها . . .

نعم ، إن القرآن الكريم بإيراده معجزات الأنبياء إنما يخط الحدودَ النهائية لأقصى ما يمكن أنْ يصل إليه الإنسانُ في مجال العلوم والصناعات ، ويشير بها إلى أبعد نهاياتها ، وغاية ما يمكن أنْ تحققه البشرية من أهداف . فهو بهذا يعيّن أبعدَ الأهداف النهائية لها ويحددها . ومن بعد ذلك يحث البشرية ويحضّها على بلوغ تلك الغاية ، ويسوقها إليها . إذ كما أنَّ الماضي مستودع بذور المستقبل ومرآة تعكس شؤونه ، فالمستقبل أيضاً حصيلة بذور الماضي ومرآة آماله" .[1] ويخلص النورسي إلى القول :

نعم ، لو راجعنا القرآن الكريم المعجزة الخالدة التي لا تتأثر بصروف الزمان ولا تنقضي عجائبه ، نرى أن "بابه مفتوح لكل عصر ولكل طبقة من طبقاته ، حتى كأن ذلك الكلام الرحماني ينزل في كل مكان في كل حين. فكلما شاب الزمان شبّ القرآنُ وتوضحت رموزُه" .[2]

مكمن الداء :

ولكن هل الأمر بهذه السهولة ، أوَ ليس هناك موانع أمام نظر الإنسان يحجبه عن الرؤية السليمة .

نقول : نعم . الحجاب هو : **الألفة!** التي هي أخت الجهل المركب وأمّ النظر السطحي ، إذ "لما عجز الإنسان بنظره السطحي أن يتذوق ما في جفان الكائنات وصحونها من غذاء روحي مغطى بغطاء الألفة ، سئم من لعق الجفان ولَحْس الغطاء" .[3]

وهكذا شخّص النورسي مكمن الداء وهو "غطاء الألفة" ، واستلهم علاجه من القرآن الكريم وهو تمزيقه لهذا الغطاء وإزاحته لستار العادة عن جميع أشياء هذا العالم ، وكل دقائقه . وربط كل شيء بتجليات الأسماء الحسنى ، ذلك :"أن القرآن الكريم ، ببياناته القوية النافذة ، إنما يمزّق غطاء الألفة وستار العادة الملقى على موجودات الكون قاطبة ، والتي لا تُذكر إلاّ أنها عادية مألوفة مع أنها خوارق قدرةٍ بديعة ومعجزاتها العظيمة . فيكشف القرآن بتمزيقه ذلك الغطاء حقائقَ عجيبة لذوي الشعور ، ويلفت أنظارهم إلى ما فيها

---

(1) الكلمات ص ٢٧٩
(2) الكلمات ص ٨٨٢
(3) صيقل الإسلام، محاكمات عقلية ص ٦٤

من دروس بليغة للاعتبار والعظة ، فاتحاً كنزاً لا يفنى للعلوم أمام العقول".[1]

ومن هنا يأتي بأمثلة غزيرة من الكائنات ليقرب إلى الأذهان الحقائق العظيمة للقران الكريم ، ولذلك سهل على العامة ؛ بل حتى على الأميين ؛ قراءة مقاصد القران التي هي :"أربعة : التوحيد ، والنبوة ، والحشر ، والعدالة".[2] من خلال أبعاده الكونية ؛ إذ يلفت الانتباه إلى مظاهر الكون التي يبصرها كل ذي عينين ؛ ليتفكر فيها . كل على حسب طاقته ، وسعة إدراكه ، فيكون القرآن الكريم بكونيته هذه خطابا لجميع الناس ، بجميع مستوياتهم الثقافية ، واختلافاتهم اللغوية والعرقية . وهذا ضرب من ضروب الإعجاز الذي استلهمه النورسي من القرآن نفسه . يقول: " انظر إلى درجة رحمة القرآن الواسعة ، وشفقته العظيمة على جمهور العوام ، ومراعاته لبساطة أفكارهم ، ونظرهم غير الثاقب إلى أمور دقيقة ! انظر كيف يكرر ويكثر الآيات الواضحة ، المسطورة في جباه السماوات والأرض ! فيقرئهم الحروف الكبيرة التي تُقرأ بكمال السهولة، كخلق السماوات والأرض ، وأمثالها من الآيات ، ولا يوجه الأنظار إلى الحروف الدقيقة المكتوبة في الحروف الكبيرة إلاّ نادرا ، كيلا يصعب الأمر عليهم . ثم انظر إلى جزالة بيان القرآن وسلاسة أسلوبه وفطريته ، كيف يتلو على الإنسان ما كتبته القدرة الإلهية ، في صحائف الكائنات ؛ من آيات ؛ حتى كأن القرآن قراءة لما في كتاب الكائنات وأنظمتها ، وتلاوة لشؤون بارئها المصور ، وأفعاله الحكيمة ".[3]

القرآن قراءة لكتاب الكون :

لاشك أن تعريف الأستاذ النورسي للقرآن تعريف جديد ، يدل على إدراك عميق لحقيقة القرآن الكريم وجلاله وعظمته ، وفهم ثاقب لحقائقه ومقاصده اللطيفة الجليلة ، يقول إنه : "الترجمةُ الأزلية لهذه الكائنات ، والترجمانُ الأبدي لألسنتها التاليات للآيات التكوينية ، ومفسّرُ كتاب العالَم . . وكذا هو كشافٌ لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السماوات والأرض . . وكذا هو مفتاحٌ لحقائق الشؤون المضْمَرة في سطور الحادثات . . وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة . . ".[4]

إن اعتباره القرآن الكريم أعظم تفسير للكون جعله يدرك العلاقة و الرابطة

---

(1) الكلمات ص١٥٠

(2) إشارات الإعجاز ص٢٣.

(3) اللمعات ص١٩٦.

(4) إشارات الإعجاز ص ٢٢

بين كلام الله جل وعلا وبين مشيئته في ملكوته . فالعلاقة بين كتاب الله المتلو وكتاب الله المنظور هي علاقة تبادل للتفسير ، كل واحد منهما يفسر الآخر ، دون الاستقلال عنه . ولذلك قال : " إن القرآن الكريم المقروء هو أعظم تفسير وأسماه ، وأبلغ ترجمان وأعلاه لهذا الكون البديع ، الذي هو قرآن آخر عظيم منظور "[1] ، و " إن القرآن الكريم يتلو آيات الكائنات في مسجد الكون الكبير هذا ، فلننصت إليه ! ولنتنوّر بنوره ، ولنعمل بهديه الحكيم ؛ حتى يكون لساننا رطباً بذكره وتلاوته ! "[2].

بمعنى أنه بين الإعجاز القرآني بجماليته البلاغية ، وبلاغية الإعجاز في نظام الكائنات ، علاقة صميمة بحيث ترقى بالإعجاز الكوني إلى أن يكون مكاتيب إلهية بتمزيق " غطاء الألفة " .

ولبيان قوة علاقة الحقائق القرآنية بحقائق الكون يقول بعد سرده الأمثلة : "فاعلم من هذا أن (العدالة والاقتصاد والطهر) التي هي من حقائق القرآن ودساتير الإسلام ، ما أشدها إيغالا في أعماق الحياة الاجتماعية ، وما أشدها عراقة وأصالة . وأدرك من هذا مدى قوة ارتباط أحكام القرآن بالكون ، وكيف أنها مدت جذورا عميقة في أغوار الكون فأحاطته بعرى وثيقة لا انفصام لها . ثم افهم منها أن فساد تلك الحقائق ممتنع كامتناع إفساد نظام الكون والإخلال به ، وتشويه صورته .

ومثلما تستلزم هذه الحقائق المحيطة بالكون (. . .) فهناك حقائق محيطة معها ، كالرحمة والعناية والرقابة ، وأمثالها مئات من الحقائق المحيطة والأنوار العظيمة ، تستلزم الحشر ، وتقتضي الحياة الآخرة!"[3].

وهكذا ربط بديع الزمان النورسي بين القرآنين ، وهنا مكمن السر ، وبه كان لرسائله ذوقها ، وكان لدعوته أثرها في المجتمع .

أي إنه استطاع أن يجمع بين القراءتين في نسق عجيب : **قراءة كتاب الله المتلو ، وقراءة كتاب الله المنظور** ؛ فكان أن فتح بينهما منافذ للفهم والتفسير قدمها للناس في " رسائل النور " . قدمها لتوافق عصرَه ، إدراكا منه لطبيعة حركته ، وصراعات أفكاره ، وأساليب التغير فيه ، بأسلوب مطابق لروح العصر ، مستجيب لمعضلاته ، يفهمه الخاص والعام .

---

(1) الكلمات ص ١٤٣.
(2) الكلمات ص ٣٠.
(3) اللمعات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي ص٥٢٦. سوزلر، إسطنبول ١٩٩٣.

الكون كتاب الله المنظور :

الكون هو آيات وجودية ناطقة بتوحيد الله ، ودالة عليه تعالى . كما هو شأن آيات القرآن الكريم . ذلك لأنه " خطاب إلهي للعالمين ؛ ومن هنا كان كل شيء فيه آية مبصرة ، ونورا يعكس جمال الأسماء الحسنى".[1] إذ "كما أنه محال أن يكون كتاب بلا كاتب ، ولا سيما كتاب كهذا الذي تتضمن كل كلمة من كلماته كتاباً خُطّ بقلم دقيق ، والذي تحت كل حرف من حروفه قصيدة دُبجت بقلم رفيع . وكذلك من أمحل المحال أن يكون هذا الكون من غير مبدع ، حيث إن هذا الكون كتاب على نحو عظيم تتضمن كل صحيفة فيه كتباً كثيرة ، لا بل كل كلمة منها كتاباً ، وكل حرف منها قصيدةً . . فوجه الأرض صحيفة ، وما أكثر ما فيها من كتب! والشجرة كلمة واحدة ، وما أكثر ما فيها من صحائف! والثمرة حرف ، والبذرة نقطة .. وفي هذه النقطة فهرس الشجرة الباسقة وخطة عملها . فكتاب كهذا ما يكون إلاّ من إبداع قلم صاحب قدرة متصف بالجمال والجلال والحكمة المطلقة . أي إن مجرد النظر إلى العالَم ومشاهدته يستلزم هذا الإيمان ، إلاّ مَنْ أسكرته الضلالة! "[2]

قراءة الكون :

إن مفهوم "الكون" باعتباره مجموعة من الرموز الوجودية ، عند النورسي ، هو رسائل ربانية وخطابات سبحانية إلى هذا الإنسان ، يخاطبه به ليبلغه وحدانيته ، وجمال ذاته ، وجلال صفاته سبحانه ؛ بقصد هدايته إليه ، وتبيان سبيل الوصول إليه عز وجل . فكل شيء إذن بهذا الوجود هو أحرف كونية ، وكلمات ربانية ، وجمل صمدانية ، صادرة من لدن حكيم خبير ؛ بقصد سابق معلوم . فـ"إن كتابَ الكونِ المشهود بآياته الشؤونية تفسّر تلك الآيات القرآنية ، وتقرّبُها إلى فهمك بإراءة كثيرٍ من نظائرها المشهودة لعينك ، في تلافيف اختلاف الليل والنهار ، وفي معاطفِ تحولِ الفصول والأعصار".[3]

يقول النورسي : "إن التجلي الأعظم لاسم "الحَكَم" جعل هذا الكون بمثابة كتاب عظيم كتبتْ في كل صحيفة من صحائفه مئات الكتب ، وأدرجت في كل سطر منه مئات الصفحات ، وخُطّتْ في كل كلمة منه مئات الأسطر ، وتُقرأ تحت كل حرف فيه مئات الكلمات ، وحُفِظَ في كل نقطة من نقاطه

---

(1) مفاتح النور للدكتور فريد الأنصاري ص١٥١. مطبعة نسل ٢٠٠٤ إسطنبول
(2) الكلمات ص ٦٠
(3) المثنوي العربي النوري ص ٤٤٧

فهرسٌ مختصر صغير يلخص محتويات الكتاب كله . فهذا الكتاب بصفحاته وأسطره بل بنقاطه يدل دلالة واضحة ساطعة - بمئات الأوجه - على مصوِّره وكاتبه ، حتى إن مشاهدة الكتاب الكوني العظيم هذا وحدَها كافية للدلالة على وجود كاتبه ، بل تسوقنا إلى معرفة وجوده ووحدانيته بما يفوق دلالة الكتاب على نفسه أضعافاً مضاعفة".[1] فـ"يتلو كتابُ الكائنات بأبوابه وفصوله وصحفه وسطوره وجُمله وحروفه آيات وجوبه ووحدته ، وتقرأ سطورهُ على العقول :

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملأ الأعلى إليك رسائل"[2]

أي أن كل ما في الكون من موجودات أو حوادث ما هي إلا مكاتيب ورموز دلالية تحمل خطابا إلى الإنسان ، ومن هنا كان كتابا . حتى شبهه النورسي بـ"قرآن مجسم" من حيث إن القرآن المقروء خطاب الله للعباد ، المنزل على عبده؛ هداية لهم وإرشادا ، فشابهه الكون من هذه الجهة ، أي من حيث إنه هو أيضا خطاب الله الرمزي لذوي الألباب ؛ هداية لهم وإرشادا .

ولو أردنا أن نلج إلى باطن هذا الكتاب الكوني ؛ لوجدنا أنه سجل شامل لتفاصيل الكائنات وسائر مقاديرها الممكنة ، ذلك " أن الحاكم الحكيم والعليم الرحيم الذي كتب هذا الكون بشكل كتاب ، حتى سجل تاريخ حياة كل شجرة في كل بذرة من بذورها ، ودوّن وظائف حياة كل عشب ومهام كل زهر في جميع نواها . وكتب جميع حوادث الحياة لكل ذي شعور في قواه الحافظة الصغيرة كحبة الخردل . واحتفظ بكل عمل في ملكه كافة وبكل حادثة في دوائر سلطنته بالتقاط صورها المتعددة ، والذي خلق الجنة والنار والصراط والميزان الأكبر لأجل تجليات وتحقق العدالة والحكمة والرحمة التي هي أهم أساس للربوبية "[3].

وبهذا يتبين الفرق الأساس بين المؤلفات السابقة ورسائل النور . يقول النورسي : " إن الدواوين والمؤلفات السابقة تقول : كن ولياً وشاهد وارق في المقامات والدرجات ، وأبصر وتناول الأنوار والفيوضات! . بينما رسائل النور تقول : كن من شئت وأبصر! وافتح عينيك فحسب وشاهد الحقيقة وأنقذ

---

[1] اللمعات ص ٥٢٨.

[2] لرجل نحوى مشهور يُعرف بركن الدين بن القَوْبَع (ت ٧٣٨ هـ) - (قول على قول ١٥٧/١١ للكرمى). المثنوي العربي النوري ص٢٢٧

[3] الشعاعات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي ص ٢٩٩. سوزلر، إسطنبول ١٩٩٣.

إيمانك الذي هو مفتاح السعادة الأبدية "[1] ولا يحول شيء دون هذه القراءة الكونية والإبصار للآيات التكوينية وصولا إلى حقائق القران لكل إنسان مهما كانت ثقافته ، لذا أخذت الرسائل تشق طريقها في المجتمع بكافة طبقاته بفضل الله تعالى .

نظائر كونية لآيات جليلة :

نكتفي هنا بذكر نماذج من تلك النظائر الكونية لآيات جليلة حيث إن رسائل النور طافحة بها .

يقول في مستهل الكلمة الرابعة عشرة مثلا : " سنشير إلى نظائر قسم من الحقائق السامية الرفيعة للقرآن الحكيم ، ولمفسّره الحقيقي الحديث الشريف ، وذلك لتكون بمثابة درجات سلّم للصعود إلى تلك الحقائق ، لكي تُسعف القلوب التي ينقصها التسليم والانقياد "[2] ثم يورد النماذج من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة . .

وأحيانا يذكر السور أولا ثم يعقبها بأن "هذه السوَر تذكر الانقلابات العظيمة والتصرفات الربانية الهائلة بأسلوب يجعل القلب أسير دهشة هائلة يضيق العقل دونها ويبقى في حيرة . ولكن الإنسان ما أن يرى نظائرها في الخريف والربيع إلاّ ويقبلها بكل سهولة ويسر . ولما كان تفسير السور الثلاث هذه يطول ، لذا سنأخذ كلمة واحدة نموذجاً ، فمثلاً :

﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾[3] تفيد هذه الآية أن : ستنشر في الحشر جميع أعمال الفرد مكتوبة على صحيفة . وحيث إن هذه المسألة عجيبة بذاتها فلا يرى العقل إليها سبيلاً ، إلا أن السورة كما تشير إلى الحشر الربيعي وكما أن للنقاط الأخرى نظائرها وأمثلتها ، كذلك نظير نشر الصحف ومثالها واضح جلي . فلكل ثمر ولكل عشب ولكل شجر ، أعمال وله أفعال وله وظائف وله عبودية وتسبيحات بالشكل الذي تظهر به الأسماء الإلهية الحسنى ، فجميع هذه الأعمال مندرجة مع تاريخ حياته في بذوره ونواه كلها . وستظهر جميعها في ربيع آخر ومكان آخر . أي انه كما يذكر بفصاحة بالفة أعمال أمهاته وأصوله بالصورة والشكل الظاهر ، فانه ينشر كذلك صحائف أعماله بنشر الأغصان وتفتح الأوراق والأثمار . نعم ، إن الذي يفعل هذا أمام أعيننا بكل حكمة وحفظ

---

[1] الملاحق، ملحق قسطموني، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي ص ١٠٥. سوزلر، إسطنبول ١٩٩٥.

[2] الكلمات ص ١٨٥

[3] التكوير: ١٠

وتدبير وتربية ولطف هو الذي يقول : ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [1].

ويقول : " يا من يضيق صدرُه ولا يسع فكرُه عظمةَ بعض المسائل من الحقائق القرآنية كأمثال : ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [2] و ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ [3] و ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [4] و ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [5] و ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [6] وأمثالها . .

إن كتابَ الكونِ المشهود بآياته الشؤونية تفسّر تلك الآيات القرآنية ، وتقرّبُها إلى فهمك بإراءة كثيرٍ من نظائرها المشهودة لعينك ، في تلافيف اختلاف الليل والنهار ، وفي معاطفِ تحولِ الفصول والأعصار .

فإن شئت الشهودَ فافتح كنز آية ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [7] لترى بعينك ما لا يعد من المسائل العظيمة ، نظائرَ ما استبعدتَ!

مثلاً : تشاهد في الحشر الربيعي إحياءَ آلافِ عوالمَ من أنواع النباتات والحيوانات التي ماتت في القيامة الخريفية . وإيجاد كلٍّ منها بنظامات مخصوصة ، وموازين معينة في أيام معدودة . مع أن لكلٍّ واحدٍ من أكثر تلك العوالم وسعةً ، بحيث يُزيّن أكثر وجه الأرض كبرقعٍ منمنم . . وهكذا مما لا يحد ولا يحصى من الشّواهد المشهودة الصادقة .

فمما لا يحد من تلك العوالم انظر إلى عالم الشجر . . ومما لا يعد من أنواعها إلى نوع شجر التفاح . . ومما لا يحصى من أفرادها إلى هذه الشجرة! لترى ثلاث حشرٍ ونشرٍ متعاقبة متداخلة . . بنشر أوراقها المهتزة المنتظمة . . وحشر أزهارها المزينة المنظومة . . وإحياء أثمارها اللذيذة الموزونة . . فمن يفعلْ هذه الأفاعيل في سطح الأرض ويكتب بتقليب صحيفة الشتاء ألوف صحائف كصفحة الأرض في الوسعة ، هو الذي يخبر عن نفسه بأنّه ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ إلى آخر ما مرّ" [8].

---

(1) الكلمات ص ٤٩٥
(2) يونس: ٣
(3) النحل: ٧٧
(4) لقمان: ٢٨
(5) الزمر: ٦٨
(6) الأنبياء: ١٠٤
(7) الروم: ٥٠
(8) المثنوي العربي النوري ص ٤٤٧

ويذكر لطلابه أنه : "قبل ثلاثين سنة تقريبا وفي هذا الموسم حيث تتفتح أزاهير أشجار اللوز ، كنت أتجول هنا - مشيرا إلى الأشجار والبساتين- وإذا بالآية الكريمة : ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ترد إلى خاطري وفتح الله عليّ هذه الآية في ذلك اليوم فكنت أسير وأتجول وأتلوها بصوت عال حتى قرأتها أربعين مرة ، وفي المساء ألفت "رسالة الحشر" الكلمة العاشرة ، مع الحافظ توفيق الشامي ، أي أمليتُ عليه الرسالة وكتبها" [1].

المنهجية المتميزة :

يتبين لنا مما سبق : أن رسائل النور تفسير للقرآن الكريم . وقد سبقتها تفاسير لعلماء أجلاّء لفتوا الأنظار إلى الكون أيضاً في مواضع من تفاسيرهم كما لا يخفى ، إلاّ أن الشيء الأصيل الذي جاءت به رسائل النور هو وضعها لمنهجية جديدة في تفسير القرآن مستندة إلى **التفكير التأملي في كتاب الكون ومشاهدة تجليات الأسماء الحسنى** ، مستخدمة الإدراك القلبي وموازين العقل والمنطق . حتى غدت هذه القراءة المتميزة علامتها الفارقة . مما يسرت لها مخاطبة شرائح المجتمع كلها دون أن تقتصر على نخبة من العلماء أو المثقفين ، حيث يتمكن من الاغتراف منها الصغير والكبير والعالم والجاهل والرجل والمرأة كل حسب طاقته ، فترفع عنه غطاء الألفة وتمزّق له ستار العادة ، فيجد ضالته في كتاب الكون الذي يقرأه بالمعنى الحرفي مما يجعله في عبادة فكرية دائمة كلما نظر إلى ما حوله ، ويرى في كل شيء دلائل إيمانية وحقائق قرآنية تسكب الطمأنينة في قلبه والانشراح في روحه . . وحقا قال الأستاذ النورسي : "إن رسائل النور برهان باهر للقرآن الكريم ، وتفسير قيم له، وهي لمعة براقة من لمعات إعجازه المعنوي ، ورشحة من رشحات ذلك البحر ، وشعاع من تلك الشمس ، وحقيقة ملهمة من كنز علم الحقيقة ، وترجمة معنوية نابعة من فيوضاته" [2].

من التنظير إلى التطبيق :

والآن لنرى ما ثمرات هذه المنهجية المتميزة . فنقول باختصار :

لقد استطاعت رسائل النور بفضل الله وكرمه تكوين جيل مؤمن يحمل اليقين في قلبه والإقدام في روحه والعلم في عقله ، فانطلق في الآفاق نموذجا إيمانيا فريدا في هذا العصر العصيب يبني في طول تركيا وعرضها مدرسة

---

(1) سيرة ذاتية:بخ.

(2) الملاحق، ملحق قسطموني ص٢٢٠

إيمانية ، روحية وثقافية كبرى ، وارفة الظلال ، مستقيمة المسالك ، آتت أكلها بإذن ربها في كل مكان . حيث غدا ساعياً إلى نيل رضى الله سبحانه في المختبر والمعمل كما يناله في المسجد ، وأن يتعبد لله بمدارسة العلوم الحديثة والغوص فيها مثلما يتعبد بكتب الفقه والشريعة . وأنشأ هذا الجيل مؤسسات ثقافية ومراكز علمية ، وإذاعات مرئية ومسموعة وتولى نشر الصحف اليومية والمجلات العلمية والمتخصصة في شؤون الحياة المختلفة . . وأسس المدارس الخاصة بمستويات مختلفة التي تجاوزت ربوع البلاد وبلغت أقاصي البلدان في أرجاء العالم ، حتى إنها اشتركت لسنين عديدة في المسابقات العلمية الأولمبية سواء على صعيد القطر أو على صعيد الدول . وحازت على العديد من الميداليات ؛ نذكر بعضاً منها باختصار شديد .

فمثلاً : اشتركت ٢٩ مدرسة من هذه المدارس الموجودة في قازاخستان عام ٢٠٠٥ في المسابقات العالمية التي جرت في كل من إندونيسيا وطاجكستان وموسكو وتركيا والبرازيل وحازت على ٢١ جائزة في الرياضيات ، وعلى ١٠ جوائز في الكيمياء ، وعلى ١٠ جوائز في البيولوجيا ، وعلى ٩ جوائز في علوم الحاسبات الإلكترونية ، وعلى ٦ جوائز في الفيزياء . وهكذا فازت بالجوائز العلمية في كثير من بلدان العالم التي تأسست فيها هذه المدارس . حتى إنه في الأولمبياد العلمي الذي جرى في ٨ مارس ٢٠٠٧ بين المدارس الأمريكية ، بدعم من مؤسسة "ناسا" الفضائية ، فازت المدرسة التركية هناك بالجائزة الأولى على المدارس الأمريكية ، فحازت ٢٨ ميدالية ؛ منها ١٢ ذهبية و١٢ فضية و٤ ميداليات برونزية .

فضلا عن هذا فقد أصبحت هذه المدارس محل تقدير أهالي البلاد التي تأسست فيها وإعجابهم . وذلك لسيادة الأخلاق الحميدة في طلابها . لأنهم يُلقّنون عملياً التحلي بالأخلاق الفاضلة والتخلي عن الفاسدة منها ، بما يرون من خصال حسنة لدى أساتذتهم ، في أطوار حياتهم وأساليب تعاملهم معهم .

ولم تقتصر هذه المدارس بالتفوق العلمي والتجمل الخلقي فحسب ، بل تعلّم الطلبة أيضاً كيف ينخرطون في شرائح المجتمع المختلفة لمعاونة المعوزين والأخذ بيد المحتاجين ، كإعطاء لحوم الأضاحي لهم ، وإقامة دعوات الإفطار طوال أيام شهر رمضان . أو حفر الآبار في البلدان التي تشكو الجفاف (مثل النيجر)، وترتيب حملات المساعدة للبلدان التي تعرضت للنكبات مثل باكستان وإندونيسيا ، وفي توزيع الأدوية على الأهالي ومداواتهم . . .

كل هذه الثمرات اليانعة ببركة الاسترشاد بحقائق القرآن الكريم وقراءة كتاب الكون العظيم بمنهجية جديدة ، التي ينهلونها من رسائل النور .

حالات فساد العقيدة وكيفية طرحها

بقلم : الشيخ الطاهر بدوي الجزائري

ففساد الاعتقاد طارئ على الناس وهو يتمثل في ثلاثة أحوال : الإشراك والتعطيل والخطأ في الصفات . وهذه الحالة تأخذ فساداً من الحالتين الأخريين .

فأما الإشراك فهو أقرب إلى الفطرة من التعطيل ، لأن فيه اعترافاً بضرورة وجود الصانع ، غير أنه يجعل الصانع متعدداً . وقد طرأ الإشراك لدواعي مجهولة التاريخ والصفة ، والمحقق أن الإشراك كان معتقداً للناس في عصر نوح عليه السلام قبل بعثته ، فقد عبد قوم نوح خمسة أصنام . . ودا و سواعا ويغوث ويعوق ونسرا . والذي دعا الناس لعبادة أصنام هو الغلو في تقديس المعتقدين . روى البخاري رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : " كان ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر رجالا صالحين من قوم نوح عليه السلام ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن أنصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون إليها أنصابا " تماثيل " وسموها بأسمائهم ، ففعلوا فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عُبدت " . وحقا إن إفراط المحبة يفري بتقديس أثر المحبوب . ولكن هذا لا يبيح لنا محاربة الأولياء والصالحين ولا من يزورهم أحياء أو أمواتا أو يتوسل ببركتهم وآثارهم الصالحة علماً أن الولي الصالح لا يؤثر في الهداية ولا ينفع ولا يضر ، بل المؤثر الوحيد الحق جل علاه وعلما أنه لا يجوز أن يعبد أحد سوى الله عز وجل .

إن موقفنا في هذه المسألة موقف وسط ، فأننا لا نقول و لا نؤيد الذين يعبدون مخلوقا غير الله مهما رقي في الخير والصلاح ، فإذا كان النبي المعصوم لا يملك لنفسه نفعا و لا ضرا و إذا كان لا يعلم الغيب إلا ما علمه الله فكيف بمن هو أدنى منه رتبة في التقوى و الصلاح . فإننا نقول بكرامة الأولياء كما نؤمن بمعجزات الأنبياء و هؤلاء و أولائك لا يؤثرون ولا ينفعون و لا يضرون، فإذا نفعوا الخلق فبإذن الله و قدرته و إرادته لا بمحض إرادتهم و قدرتهم . . . نؤمن أنهم عباد وفقهم ربهم للصلاح . وإذا زرناهم فلأننا أحببناهم لله ، ولأن الله مدحهم بنفسه في كتابه فقال : "أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَآءَ اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ . لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي

الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ " (يونس ٦٢ - ٦٣ - ٦٤) فزيارتهم تقربنا إلى حبهم و يجعلنا نتشبه بهم .قال بعضهم :

" تشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح "

و كيف يخاف أولياء الله أو يحزنون و الله معهم . هكذا في كل شأن وفي كل عمل وفي كل حركة أو سكون و هم أولياء الله ، المؤمنون به الأتقياء المراقبون له في السر و العلن . " الذين آمنوا و كانوا يتقون " . كيف يخافون و كيف يحزنون وهم على اتصال بالله لأنهم أولياؤه ؟ و على ما يحزنون و مم يخافون و البشرى لهم في الحياة الدنيا و الآخرة ؟ إنه الوعد الحق الذي لا يتبدل " لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم " .

إن أولياء الله الذين يتحدث عنهم السياق هم المؤمنون حق الإيمان المتقون حق التقوى . و الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل . والعمل هو تنفيذ ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه . . هكذا يجب أن نفهم معنى الولاية لله لا تلك الشعوذة والخرافة التي كثيراً ما يستعملها أربابها استغلالاً للنفوس والأرواح وجلبا للحطام الفاني . فالولي مظهر رباني يدعو إلى الله بقوله وعمله و حاله[1] ومن لم يكن كذلك جاز قتله لأنه مفرور لا خير فيه . فإننا نعلن حربا ، نعلنها كفاحا ضد الإباحيين و الملحدين بإسم الحرية و المساواة ! و إننا نمقت كذلك المشعوذين باسم الولاية و الزهد والصلاح بقدر ما نحب الأولياء المتقين . فالمرء يحشر مع من يحب !! و هؤلاء المشعوذون لا يحصى عددهم في وقتنا كأولئك الذين " قالوا لا تذرن آلهتكم و لا تذرن ودا و لا سواعا ولا يغوث و يعوق و نسرا " (نوح/٢٣) وهي كما سبق أكبر آلهتهم التي ظلت تعبد في الجاهليات بعدهم إلى عهد الرسالة المحمدية .

و هكذا تلك القيادات الضالة التي تقيم أصناماً ، تختلف أسماؤها و أشكالها وفق النعرة السائدة في كل جاهلية ، و تجمع حواليها الأتباع ، و تهيج في قلوبهم الحمية لهذه الأصنام ، كي توجههم من هذا الحطام إلى حيث تشاء ، و تبقيهم على الضلال الذي يكفل لها الطاعة و الانقياد :"و قد أضلوا كثيراً " ككل قيادة ضالة تجمع الناس حول الأصنام ، أصنام الأحجار ، وأصنام الأشخاص ، و أصنام الأفكار . . سواء !! للصد عن دعوة الله و توجيه القلوب بعيداً عن الدعاة ، بالمكر الكبار و الكيد و الإصرار [2] .

---

١ - راجع كتابنا في التربية الروحية " رسالة إلى لبيب " (لغة أهل الله)

٢ - انظر في ظلال القرآن للسيد قطب .

❖ وأما الخطأ في صفات الله تعالى فهو ما يعرض للعقائد الدينية التي صحت أصولها . وأهلها وإن كانوا قد آمنوا بوجود الله وتقديسه هم خلطوا ذلك بإثبات صفات لله لا تناسب قدسيته ، كما قال تعالى : " وما قدروا الله حق قدره " (الأنعام/٩١) . فهم يأخذون من الإشراك بنصيب ، إذ ليس الإشراك إلا خطأ في أعظم صفة لله ، وهي الوحدانية ، ويأخذون من التعطيل بنصيب لأن إثبات صفات لا تليق بالله تعالى يستلزم نفي أضدادها التي هي كمالات ، وأن إثبات إله متصف بخير صفات الإله بمنزلة نفي ذلك الموصوف [1] .

وقد سئل الشيخ أبو عمران الفاسي رحمه الله ، من فقهاء القيروان عن الكافر ومعرفته فقال: " فكذلك الكافر إذا قال : إن لمعبوده صاحبة أو ولدا أو إنه جسم ، وعبد من هذه صفته ، فلم يعرف الله ولم يصفه بصفته ولم يقصد بعبادته إلا من هذه صفته " . فإنه يعبد المخلوق الحادث الفاني لا الخالق الذي ليس كمثله شيء والذي لم يلد ولم يولد ولم تكن له صاحبة ولم يكن له كفوا أحد .

لا شك أن الشرائع الإلهية كلها جاءت بالصدق وتصدت لإبطال الإشراك والتشنيع بحال أهله والأمر بتوحيد الله وتنزيهه ، ولكن ما سبق الإسلام منها كان بيانه موجزاً فيما يجب لله من الصفات وما يستحيل وما يجوز ، فمن أجل ذالك عبدت بنو إسرائيل العجل ورسولهم بين ظهرانيهم " فقالوا هذا إلهكم وإله موسى " (طه/٨٨) وجوزوا في كتابهم قصة أن يعقوب صارع الرب ليلة كاملة وهو لا يشعر أنه صارع ربّه حتى قال له في آخر المصارعة: لا يدعى اسمك يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت (٢٤- ٣١ من إصحاح ٣٢ تكوين) . ولكن الإسلام لا يضارعه دين من الأديان في شدة الاهتمام بتوضيح العقيدة وتحديد معانيها والحرص على تلقينها وإقامة دلائلها . وفي الصحيح عند ذكر الدجال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من نبي إلا أنذره قومه إلا أني أقول لكم فيه مقالا لم يقله نبي لقومه إلا أنه أعور ، عينه اليمنى ، وإن ربكم ليس بأعور " . وبذلك سلم المسلمون من نزاعات الشرك والتعطيل وحقيقة التجسيم في سائر عصور الإسلام .

❖ لقد كان شأن الاعتقاد أول ما اهتم به الإسلام ،فكان ابتداء الدعوة إلى الإيمان بالله الواحد ونبذ الأصنام ، وقد جعل ذلك مبنى الخير كله ، قال تعالى بعد أن ذكر من يعمل الصالحات " ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا

---

1 - أصول النظام الاجتماعي للإمام محمد الطاهر بن عاشور .

بالصبر و تواصوا بالمرحمة " (البلد ١٧) أي بعد أن كان من الذين آمنوا ، فحرف "ثم" هنا للارتقاء في الأخبار . وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان . " (رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما) . والآيات والآثار كثيرة في ذلك ، ومن أجل ذلك سمى علماء الإسلام العلم الباحث عن العقيدة الإسلامية علم أصول الدين . قال الإمام اللقاني رحمه الله:

" وبعد فالعلم بأصل الدين محتم يحتاج للتبيين " [١] .

وكل الطاعات والأعمال الصالحة تقوم على العقيدة الصحيحة يستوي في ذلك الرجل والمرأة ، قال الله تعالى : " مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ " (النحل ٩٧)

ومدح الطائفة الناجية التي يؤيدها سبحانه وتعالى بروح منه في كل عصر ومصر ، الناجية من كل الآفات والعاهات الظاهرة والباطنة ، الناجية من كل خسارة ، الناجية من غضب الله وسخطه والفائزة بالعزة في الدنيا والرضوان في الآخرة . . . . . قال عز وجل بعد أن قسم بالعصر : " وَالْعَصْرِ . إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ " . (العصر كلها) . والعمل الصالح هو الثمرة الطبيعية للإيمان ، والحركة الذاتية التي تبدأ في ذات اللحظة التي تستقر فيها حقيقة الإيمان في القلب . فالإيمان حقيقة إيجابية متحركة . ما إن تستقر في الضمير حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها في الخارج في صورة عمل صالح . . . . هذا هو الإيمان الإسلامي لا يمكن أن يظل خامداً لا يتحرك ، كامناً لا يتبدى في صورة حية خارج ذات المؤمن . فإن لم يتحرك هذه الحركة الطبيعية فهو مزيف أو ميت ، شأنه شأن الزهرة لا تمسك رائحتها ، فهي تنبعث منها انبعاثاً طبيعياً وإلا فهو غير موجود .

فمن خلال لفظ التواصي ومعناه وطبيعته وحقيقته تبرز صورة الأمة أو الجماعة المتضامنة المتضامنة ، الأمة الخيرة ، الواعية ، القيمة في الأرض على الحق والعدل والخير وهي أعلى وأنصع صورة للأمة المختارة . وهكذا يريد الإسلام أمة الإسلام . . . هكذا يريدها أمة خيرة قوية واعية قائمة على حراسة الحق والخير ، متواصية بالحق والصبر في مودة وتعاون وتآخ تتضح بها كلمة التواصي بالقرآن [٢] .

---

١ - انظر تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد للإمام إبراهيم البيجوري .

٢ - في ظلال القرآن .

الدعوة الإسلامية :

أيام التشريق ..... أيام طاعة لله

د. يوسف جمعة سلامة
خطيب المسجد الأقصى المبارك سابقاً

من فضل الله سبحانه وتعالى على عباده ضيوف الرحمن أن وفقهم لأداء مناسكهم بيسر وسهولة ، فقد وقفوا بعرفة قبل أيام داعين ربهم أن يتقبل حجهم ، وأفاضوا إلى المزدلفة ذاكرين الله سبحانه وتعالى ، ورموا جمرة العقبة ونحروا هديهم ، وحلقوا رؤوسهم ، وطافوا بالبيت العتيق ، كما في قوله تعالى ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ (١) وباتوا بمنى أيام التشريق ، ورموا الجمرات الصغرى والوسطى والكبرى اقتداءً بسيدنا إبراهيم - عليه السلام - ثم جعلوا آخر عهدهم بالبيت طواف الوداع ، لقوله صلى الله عليه وسلم " لاَ يَنْفِرَنَّ أَحَدٌ ، حَتَّى يَكُونَ آخِرُ عَهْدِهِ بِالْبَيْتِ" (٢) فالحاج – والحمد لله - في طاعة مستمرة لربه ، حيث تنطلق الأصوات بالتلبية : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

وفي هذه الأيام المباركة يتجلى الله على عباده ، ويمنُّ على ضيوفه الذين لبّوا دعوته ، وقصدوا مائدته ، يَمُنُّ عليهم بالعفو والمغفرة والرضوان، ويقول لهم : أفيضوا عبادي مغفوراً لكم ولمن شفعتم له . (٣)

أيام التشريق..... أيام ذكر

أيام التشريق أيام طاعة لله سبحانه وتعالى ، فهي أيام ذكر وشكر لله عز وجل ، كما جاء في الحديث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرِ اللَّهِ (٤)، كما ذكر الإمام البخاري في صحيحه في كتاب العيدين ، باب التَّكْبِيرِ أَيَّامَ مِنًى ، وَإِذَا غَدَا إِلَى عَرَفَةَ :

وَكَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، يُكَبِّرُ فِي قُبَّتِهِ بِمِنًى فَيَسْمَعُهُ أَهْلُ الْمَسْجِدِ فَيُكَبِّرُونَ وَيُكَبِّرُ أَهْلُ الأَسْوَاقِ حَتَّى تَرْتَجَّ مِنًى تَكْبِيرًا . وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يُكَبِّرُ بِمِنًى تِلْكَ الأَيَّامَ وَخَلْفَ الصَّلَوَاتِ ، وَعَلَى فِرَاشِهِ وَفِي فُسْطَاطِهِ وَمَجْلِسِهِ وَمَمْشَاهُ تِلْكَ الأَيَّامَ جَمِيعًا .

وَكَانَتْ مَيْمُونَةُ تُكَبِّرُ يَوْمَ النَّحْرِ ، وَكُنَّ (النِّسَاءُ) يُكَبِّرْنَ خَلْفَ

أَبَانَ ابْنِ عُثْمَانَ وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ لَيَالِيَ التَّشْرِيقِ مَعَ الرِّجَالِ فِي الْمَسْجِدِ) (٥)

ومن المعلوم أن التشريق هو تقديد اللحم بإلقائه في الشمس المشرقة ، وقد جرت العادة بتشريق لحوم الأضاحي في اليوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر ، فسميت هذه الأيام الثلاثة أيام التشريق ، وأيام التشريق هي الأيام المعدودات ، أما الأيام المعلومات فهي أيام العشر من أول ذي الحجة ، كما ذكره الإمام البخاري رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما (وقال ابن عباس) ﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ ﴾ أيام العشر والأيام المعدودات : أيام التشريق . (٦)

فأيام التشريق يجتمع فيها للمسلمين نعيم أبدانهم بالطعام والشراب ، ونعيم قلوبهم بذكر الله وشكره على نعمائه ، فالحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله .

لقد بينت الأحاديث النبوية الشريفة أهمية مجالس الذكر وفضلها ، وأنها خير المجالس لما فيها من ذكر لله سبحانه وتعالى وتسبيحه كما جاء في الحديث : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : {خُذُوا جُنَّتَكُمْ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَمِنْ عَدُوٍّ قَدْ حَضَرَ ؟ قَالَ : لاَ ، وَلَكِنْ جُنَّتُكُمْ مِنَ النَّارِ قَوْلُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ ، فَإِنَّهُنَّ يَأْتِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُجَنِّبَاتٍ وَمُعَقِّبَاتٍ ، وَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ } . (٧)

والذكر في الإسلام يشمل قراءة القرآن الكريم لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٨) ويشمل الصلاة لقوله تعالى ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ (٩)

كما يشمل الذكر لقوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا ، وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾ .

كما يشمل السنة النبوية الشريفة بدراستها وسماعها والعمل بها ، لما ورد عن بعض المفسرين بأن الذكر في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ يشمل الكتاب والسنة ، فما أفضل المجالس الطيبة المشتملة على ذكر الله سبحانه وتعالى وتسبيحه وحمده وشكره .

ولما كانت هذه الأيام هي آخر أيام يقضيها الحجاج في تلك الربوع الطاهرة ، وهم يكملون أداء مناسكهم، وغير الحجاج يختمونها بالتقرب إلى الله تعالى بنحر الأضاحي بعد الأعمال الصالحة في الأيام العشرة ،

كان ختام هذا الموسم ذكر الله تعالى وشكراً للحجاج وغيرهم ؛ فقد جاء في الحديث الشريف : { اللَّهُمَّ أَعِنِّى عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ } (١١)

التكبير في العيدين :

التكبير سنة في العيدين وهو في عيد الفطر من وقت الخروج للصلاة إلى أن يشرع الإمام في الخطبة لقوله عز وجل : ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١٢)

وأما عيد الأضحى (النحر) فيكون التكبير من صبح يوم عرفة إلى عصر اليوم الثالث من أيام التشريق رابع أيام العيد ، لقوله تعالى ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِى أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ﴾ (١٣) ولما روي عن جابر رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى الصبح من غداة عرفة أقبل على أصحابه فيقول : مكانكم ، ويقول : الله أكبر لا إله إلا الله ، والله أكبر ولله الحمد ، فيكبر من غداة عرفة إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق .

صيغ التكبير :

نذكر هنا جملة من صيغ التكبير ذكرها الأئمة - رضي الله عنهم أجمعين - منها :

- الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، الله أكبر، الله أكبر ، ولله الحمد .
- الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله بكرةً وأصيلاً ، لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصرعبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وعلى أصحاب سيدنا محمد ، وعلى أنصار سيدنا محمد وعلى أزواج سيدنا محمد وعلى ذرية سيدنا محمد وسلم تسليماً كثيراً .

ومن المعلوم أن التكبير من أحب الكلام إلى الله سبحانه وتعالى، كما جاء في الحديث : عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم { أَحَبُّ الْكَلاَمِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ : سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ. لاَ يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ } . (١٤)

فضل صلة الأرحام في العيد :

إن صلة الأرحام لها مكانة رفيعة وآثار طيبة في المجتمع الإسلامي سواء أكانت بالكلمة الطيبة ، أو بالمساعدة والمعونة أو بالرعاية والتقدير، فإنها تلقي بظلالها الطيبة على العلاقات بين الأقارب ، كما تعمل على تقويتها ، لقوله تعالى : ﴿ وآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ، وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾(١٥) ، ولقوله صلى الله عليه وسلم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ،(١٦) ومن المعلوم أن صلة الأرحام في العيد واجبة ، وصلة الرحم ليست قاصرة على الأقرباء الذين يصلونك ويزورونك ، فهذه تعد مكافأة لهم على زياراتهم ، ولكن الصلة الحقيقية الكاملة ينبغي أن تشمل جميع الأقرباء حتى القاطع منهم للحديث الذي رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : { لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ ، وَلَكِنِ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قَطَعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا } . (١٧)

زيارة الجيران في العيد :

من المعلوم أن من أهم ما عُني به الإسلام حق الجوار ورعاية حرمات الجار ، حرصاً على سلامة النسيج الاجتماعي ، وحماية له من الضعف والوهن ، ليكون المجتمع المسلم كما أراده صلى الله عليه وسلم كالجسد الواحد ، فمن حق الجار على جاره في العيد أن يزوره ، ويمد له يد العون والمساعدة إن كان فقيراً أو محتاجاً ، فقد جعل رسولنا - صلى الله عليه وسلم – الإحسان إلى الجار علامة على خيرية الإنسان وأمارة على صلاحه من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم { خَيْرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ }. (١٨)

تقبل الله منا ومنكم الطاعات ، وكل عام وأنتم بخير .

وصلى الله على سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – وعلى آله وصحبه أجمعين .

الهوامش : (١) سورة الحج الآية/٢٩ (٢) أخرجه مسلم (٣) أخرجه البزار (٤) أخرجه مسلم (٥) أخرجه البخاري (٦) أخرجه البخاري (٧) أخرجه الحاكم (٨) سورة الحجر الآية/٩ (٩) سورة طه الآية/١٤ (١٠) سورة آل عمران الآية /١٩١ (١١) أخرجه أبوداؤد (١٢) سورة البقرة الآية/ ١٨٥(١٣) سورة البقرة الآية/٢٠٣ (١٤) أخرجه مسلم (١٥) سورة الإسراء الآية /٢٦ (١٦)أخرجه البخاري (١٧)أخرجه البخاري (١٨)أخرجه البخاري .

أثر القرآن الكريم في النثر الجزائري الحديث

الدكتور محمد مظهر عالم الندوي
الأستاذ المساعد ، بقسم اللغة العربية وآدابها ، جامعة راجوري ، جامو وكشمير

ساهم الكتاب والمثقفون الجزائريون في نهضة الثقافة الإسلامية المستمدة من القرآن الكريم ، ومن السيرة النبوية الشريفة . استلهموا المعاني القرآنية مستعرضين أهم القضايا التي وردت في القرآن الكريم في دراساتهم التي تنادي باليقظة ، والمطالبة بالحرية والمساواة ، ودفع الظلم والطغيان ، وإرساء القواعد الأخلاقية السامية وغيرها من الموضوعات التي اعتنت ببناء الشخصية الإسلامية والوطنية ، وبعض المعاني التي يتضمنها القرآن الكريم، وحاول رجال الإصلاح التعرض لها حسب الحالة الظرفية التي هي كما يلي :

الإيمان بالله :

إن الإيمان القوي المنبثق من أعماق النفس يتخطى الحواجز ويصنع المعجزات ،مثل ما صنع المؤمنون الأولون مجداً تاريخياً زاهراً، مازال يقتدي به على مر الأيام والعصور . وقد أدرك الكتاب والمصلحون في الجزائر ما للإيمان من قوة وفعالية ، وتأثيره في الأفراد والجماعات فنوهوا به ، وأوصوا بالتمسك به ، يقول محمد السعيد الزاهري : " ولا يمكن بحال أن ننتظر من المسلمين عملاً صالحاً ، ولا خلقاً بَراً شريفاً ، مالم يدخل الإيمان في قلوبهم حقاً ، وما لم يتقو هذا الإيمان فيهم ، حتى تطفح به أنفسهم هدى ونوراً ، وهنالك ينصرون الله ، وهنالك ينصرهم الله "(١) . وعندما يسمع هذا القول سامع أو يقرؤه قارئ فهو يتدبر قوله تعالى " وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ " (٢) لقد ذكر محمد البشير الإبراهيمي الاستعمار الفرنسي و جهوده في محاربة الإيمان ، وإزالة كل ما يمت إلى العقيدة الإسلامية ، وطمس الحياة العلمية والثقافية ، وإحلال الجهل محله ليسهل عليه قيادته واستعباده كيفما شاء ، قائلا : " وهو في هذا الوطن قد أدار قوانينه على

نسخ الأحكام الإسلامية ، وعبث بحرمة المعابد وحارب الإيمان بالإلحاد ، والفضائل بحماية الرذائل ، والتعليم بإفشاء الأمية ،والبيان العربي بهذه البلبلة التي لا يستقيم معها تعبير ولا تفكير " (٣)

وقال : إن القوة التي يجب أن يتحلى بها الشعب الجزائري ، هي الإيمان بحقه ،إذا دخل الإيمان في قلوب الأمة الجزائرية تستطيع أن تقف على أقدامها وتدافع عن كيانها من تلقاء نفسها دون الانصياع إلى غيرها : " إن الاستعمار لا يؤمن بالله حتى نسأله الإنصاف لدينه الحق ، ولكنه يؤمن بالقوة فلنحذره عواقب الاغترار ، فإن هذه الأمة في مجموعها قوة ... بعددها ، وبالمعاني التي استيقظت فيها ، وبإيمانها بحقها ، وبتصميمها على استرجاعه ،فإذا تعامى على هذه القوات كلها فإن تقلبات الدهر ستفتح عينيه منها على ما يكره ، وإن الله للظالمين لبالمرصاد " (٤)

وردت التعبيرات والمعاني القرآنية في كتابات المصلحين الذين تشبعوا من مناهل القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة وبرزت بشكل صريح في تراثهم النثري إذ كتبوا عن الإيمان بالله ، يكتب عبد الحميد ابن باديس : " الحمد لله الواحد الأحد في ربوبيته وألوهيته ،مبتدئ الخلق برحمته الداعي إليه بنعمته وحجته ، شرع الشرائع بالحكمة والعدل لسعادة الإنسان ، وأودعها أسراراً وفوائد يعظم منها النفع ويزداد بها الإيمان"(٥) . استوحى الكاتب فكرة خصوصية الله بالوحدانية ، وانفراده بالربوبية والألوهية من القرآن الكريم مثل سورة الإخلاص وهو ما جاء في قوله تعالى : " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ " (٦) ، واستلهم وصفه الله بالربوبية من قوله تعالى : " إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ " (٧) ، وكذلك من قوله تعالى : " قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ " (٨) ، واستمد الكاتب كلمة الألوهية من قوله تعالى : " اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ " (٩) ، ومن قوله تعالى : " إِنَّما إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَه إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْما " (١٠)

الصبر :

الصبر هو عبارة عن إشراقة نورانية تعد من معالم العظمة وشارات الكمال ومن دلائل هيمنة النفس على ما حولها ، ولذلك كان "الصبور" من أسماء الله الحسنى ، فهو يتمهل ولا يتعجل ، ويبطئ بالعقاب إن أسرع الناس بالجريمة ، ويرسل أقداره لتعمل عملها على اتساع القرون لا على ضيق الأعمار ، وفي نطاق الزمن الرحب لا في حدود الرغبات . . والمشاعر الثائرة . . والصبر من عناصر الرجولة الناضجة . . فإن أثقال الحياة لا يطيقها المهازيل ، والمرء إذا كان لديه متاع ثقيل يريد نقله لم يستأجر له أطفالا أو مرضى أو خوارين ، وإنما ينتقي له ذوي الكواهل الصلبة والمناكب الشداد ، كذلك الحياة لا ينهض برسالتها الكبرى ولا ينقلها من طور إلى طور إلا رجال عمالقة وأبطال صابرون " (١١) .

دعا الكتاب المصلحون الجزائريون إلى الصبر والثبات لتأدية الأعمال الصالحة لبناء الجزائر وإيقاظها من غفوتها التي سلطت عليها من طرف الاستعمار . يوجه عبد الحميد بن باديس ، أحد أعمدة الإصلاح الجزائري ، لإخوانه في الجمعية الإصلاحية النداء قائلا " : أيها الإخوان! قد تعاهدنا في مثل هذا العيد من السنة الماضية ، تعاهدنا على خدمة مبادئ الجمعية وتوسيع نطاق أعمالها ونشر هدايتها ونصر كل عامل من رجالها بصبر وتضحية وثبات ، وقد وفينا – بفضل الله – بهذا العهد أو بما استطعنا في السنة الماضية " (١٢) استند في كلامه ذلك إلى قوله تعالى : " وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ . وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ " (١٣) .

ويكتب محمد ناصر ، رمضان حمود : " كلنا يعلم أن النجاح والسعادة ، نتيجتا الصبر على المكاره ، والسعي المتواصل مع الثبات في المبدأ " (١٤) و " الصبر لنوائب الدهر محمود ، ولكن الخضوع للذل والهوان دناءة وخسة " (١٥) ويوجه محمد البشير الإبراهيمي نصه إلى المعتدين قائلا : إننا قد رأينا " العابثين بمقدرات الأمم كيف تكون عواقب العبث ، ولكن الله سلم وألهم الرشد فأريناهم كيف يكون الصبر في الشدائد وكيف يكون التنبه للمكائد وأذقناهم مرارة الخيبة وغصص اليأس ، وكنا نحن الفائزين " (١٦)

والنص مقتبس من قوله تعالى : " والَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ . جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ . سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (١٧) .

هذه هي أفكار المصلحين من أبناء الأمة الجزائرية ، المنتمين إلى جمعية الإصلاح الوطني والمتشبعين بأفكار القرآن الكريم ، تأثر الكتاب المصلحون بالثقافة الإسلامية المستمدة من القرآن الكريم ، ونخص بالذكر قوله تعالى : " وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين " (١٨) وكذلك قوله تعالى : " ومن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيم " (١٩) ومثل ذلك قوله تعالى : " لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ " (٢٠) وقوله تعالى : " قُل يا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ " (٢١)

دعا الكتاب المصلحون بالجزائر شعبهم إلى السلوك السوي ، الذي يزيدهم قوة وآمالا ، فيؤدوا مهامهم على أحسن ما يرام بالصمود في وجه أعدائهم معتمدين على ما وعدهم الله به من النصر ، الذي وعد الله به المؤمنين الصابرين . وبينوا بصراحة بأن من المفروض علينا حتما التزام طريق من شأنه أن يوصلنا إلى السؤدد والفلاح وذلك بالتمسك بصفة الصبر ، و وعى الشعب الجزائري ذلك في ظرف زمني قصير ، واستطاع أن يهب عن بكرة أبيه لدفع الاعتداء السافر ، من طرف المغيرين المعتدين على حقوق غيرهم بدعوى نشر الحضارة ، التي تعد عبارة عن ذر الرماد في العيون لتغطية أهدافهم الاستيطانية والاستعبادية.

التقوى :

" التقوى حصانة وصيانة ، والتقوى رعاية ووقاية ، والتقوى قوة وفتوة والتقوى بر وخير ، والتقوى إحسان وإتقان ، والتقوى وفاء وصبر " (٢٢) .

دعا المصلحون الجزائريون الشعب الجزائري إلى التمسك بالتقوى، لأنه يعتبر بمثابة الزاد والذخيرة ، يدافع بها عند اشتداد النوائب وبذلك تهدأ النفس المطمئنة ويرتاح الضمير ، وعليه ترسل الرحمة ، فيكون عندها الاستقرار والهدوء والارتياح . يقول في ذلك محمد البشير الإبراهيمي : "وصيكم بتقوى الله فهو العدة في الشدائد والعون في الملمات ، وهي مهبط الروح والطمأنينة ، وهي منزل الصبر والسكينة وهي مبعث القوة واليقين ، وهي معراج السمو إلى السماء ، وهي التي تثبت الأقدام في المزالق ويربط على القلوب في الفتن " (٢٣) يشتمل هذا النص على محامد عديدة : أساسها التقوى ، تأثر صاحبه بقوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون " (٢٤) ودعم عبد الحميد بن باديس قول الإبراهيمي قائلا : " وأن لا فضل لأحد إلا بتقوى الله ، ومن يتق الله فهو أنفع لعباد الله " (٢٥)

وذكر بكير بن سعد أن الإنسان المسلم ذا الأخلاق السامية لا يؤثر فيه الزمان والمكان بل يرصد نفسه على التمسك الدائم بمكارم الأخلاق القرآنية التي تبعدنا عن الرياء ، والنفاق ، وتدفعنا إلى الإخلاص والإحسان اللذين يكملان فضيلة التقوى (٢٦) ، مصداقاً لقوله تعالى : " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون " (٢٧)

الشورى :

حاول كتاب ورجال الإصلاح الجزائريون أن يتمسكوا بنظام الشورى في التعامل فيما بينهم ، ثم أن يبثوه في نفوس أبناء أمتهم ليبقى ذلك المصدر الأساسي لقيام نظام الحكم السليم ، وذلك ما نلاحظه في قول ابن باديس إبان الاستعمار الفرنسي بالجزائر ، الذي سلط عليه وعلى الجمعية ما سلط من القمع ، ومحاولات الإفشال لأداء المهمة المنوطة بهم، التي تتمثل في نشر القيم الإسلامية ، ومحاربة الجهل والذل ، يقول : "وسيكون لنا جميعاً من

إقامة سنة الشورى أعظم مرشد ، ومن نورها أهدى هاد ، وسأصدرها من رأيها الموافق للمصلحة العلمية رفضا أو قبولا (٢٨)

حاول رجال الإصلاح أن يرتكزوا دائماً على النظم المستمدة من الشريعة الإسلامية الغراء ، ومنها سنة الشورى ، يدعو اليها ابن باديس مسترشداً بالآيات القرآنية " فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ " (٢٩) " وَالَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ " (٣٠) " قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ " (٣١) . فاجتمع رجال الإصلاح في جمعيتهم، وتشاوروا في أمرهم لتتوحد كلمتهم واستعانوا بالله ، وقاموا بثورة ضد العادات والتقاليد البالية ففتحوا المدارس في أنحاء القطر الجزائري لتعليم الأبناء حب الوطن ، والدين الإسلامي النظيف الخالي من البدع والتدجيل ، ومن هؤلاء الطلبة كان الإمداد لثورة نوفمبر ١٩٥٤م التي تكللت بالنصر المبين.

الظلم :

الظلم من الصفات السلبية التي تسبب ضرراً للأفراد والمجتمعات والدول وتنخر قواهم وتعبث بهم ، ذكر الإبراهيمي الوضع الذي عاشه الشعب الجزائري أثناء الاستعمار الفرنسي بالجزائر في قوله " وإنه - والله - لوضع غريب ، وقبيح أن يكون الحاكم الفرنسي هو المشرع والمنفذ والمرجع في كل شيئ وأن يكون المسلم الجزائري من هذا الوضع في دائرة مفرغة ، يبتدئ من حيث ينتهي وينتهي من حيث يبتدئ، ويشتكي من الظلم إلى الظلم " (٣٢) ، ووضح صفة الظلم وعقباها قائلا: " إن الفائدة الكبرى التي يعلقها القرآن على السير في الأرض والوقوف على آثار الأمم البائدة في الاعتبار بحال الضالين وعقبى الظالمين ليعلم المعتبر أن الظلم هو سوس المدنيات ، فيقيم العدل ، وإذا جاء العدل جاء العمران ، وإذا جاء العمران قامت المدنية وكان العدل سياجها ، وهذه هي مدنية الإسلام " (٣٣)

يعتقد الظالمون بأنهم الأعلون ، ونسوا أن هناك من هو أعلى منهم، يعلم خائنة الأعين ، وما تخفي الصدور ، وأنه سيقتص منهم طال الأمد أو قصر ، إذا حاكم ظلم ، ولم يرفع الظلم ، فباء بغضب من الله وكانت عاقبة أمره هو الزوال ، فصار عبرة لمن اعتبر ، ينعت العربي التبسي

الاستبداديين المتمثل في الاستعمار الفرنسي قائلا : " ولقد حاربت قوانين الظلم وإدارة الطغيان المدارس ، والدين واللغة ، وقصدها من ذلك أن تهدم منا العزم ، وأن تنفر منا الغني ، والقائد ، والباشاغا والموظف ، ولقد وصلت إلى بعض غرضها في غير قل للعزيمة الصادقة ، وما بقي هنا ومعنا إلا أهل الله أهل الجنة إن شاء الله " (٣٤)

ويضيف العربي التبسي في ذلك الاستعمارالفرنسي المعتدي على أناس أبرياء ، همهم الوحيد هو أن يكون لهم كيان بشري في وطنهم المسلوب ، فرقت الدولة الفرنسية في الجزائر الشعب الجزائري وشتت الأهل والأقارب ، وأن تصرفها ذلك يتمثل في تصرف فرعون الذي كان من المفسدين في الأرض : " والحق أن هذه الدولة اقترفت في العصر الحديث ما لم يقترفه فرعون في القديم " (٣٥) ، مصداقاً لقوله تعالى : " إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ " (٣٦)

الظلم منبوذ ومرفوض ، إن الله لا يعين صاحبه على الوصول إلى أهدافه الظالمة ، ولن يكون له ناصراً لأنه عاث في الأرض فسادا في فكرتهم ، اعتمد الكتاب المصلحون بالجزائر من الآيات القرآنية منها " الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ " (٣٧) و " وَإِذ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ " (٣٨) و " وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤلاءِ الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ " (٣٩) و " إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَآءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ " (٤٠) و " وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ " (٤١) و " وَلا تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ " (٤٢) و " وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ " (٤٣) و " وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ. إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ " (٤٤) .

الهوامش والمصادر:

(١) محمد السعيد الزاهري ، الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير ، ص ٧٩- ٨٠ . (٢) الروم ، الآية ٤٧ . (٣) محمدالبشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ٢٢\٢ . (٤) المرجع السابق ، ١٨١\٢- ١٨٢ . (٥) ابن باديس ، حياته وأثاره ، جمع ودراسة ، عمار الطالبي ، ٥٢٩\٣ . (٦) الإخلاص : ٤/١. (٧) آل عمران : ٥١ . (٨) الأعراف :٣٣ . (٩) البقرة : ٢٥٥ . (١٠) طه : ٩٨ . (١١) محمد الغزالي ، خلق المسلم ، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة الجزائر ، ١٩٨٥، ص ١٣١ . (١٢) ابن باديس ، حياته وآثاره ، جمع ودراسة ، عمار الطالبي ، ٥٦٤\٣ . (١٣) محمد :٣٠- ٣١ . (١٤) محمد ناصر ، رمضان حمود ، حياته وآثاره ، ص ٢٣٨ . (١٥) المرجع السابق ، ص ٢٩٢ . (١٦) محمد البشير الإبراهيمي ، آثاره ، ٢١٣\١ . (١٧) الرعد : ٢٢- ٢٤ . (١٨) النحل : ١٢٦ . (١٩) النساء : ٢٥ . (٢٠) آل عمران : ١٨٦ . (٢١) الزمر : ١٠ . (٢٢) أحمد الشرباصي ، موسوعة أخلاق القرآن، ص ٢١٠/٢١١. (٢٣) محمد البشير الإبراهيمي ،عيون البصائر ،٢٩١\٢ . (٢٤) آل عمران : ١٠٢ . (٢٥) ابن باديس ، حياته وآثاره ، جمع ودراسة : عمار الطالبي ، ٥٤٧\٣ . (٢٦) بكير ابن سعد ، أضواء على الأخلاق الإسلامية ، ص ٤٣ . (٢٧) آل عمران : ١١٠ . (٢٨) محمد الطاهر ،عبد الحميد بن باديس ، ص ٢٩٤ . (٢٩) آل عمران : ١٥٩. (٣٠) الشورى :٣٨ . (٣١) النمل : ٣٢ . (٣٢) محمد البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ، ١\ ١٨٣ . (٣٣) المرجع السابق، ٢٦٠\١ . (٣٤) العربي التبسي، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية ، جمع وتعليق ، أحمد الرفاعي، ١٩٣\١ . (٣٥) المرجع نفسه . (٣٦) القصص : ٤ . (٣٧) الأنعام :٨٢. (٣٨) لقمان : ١٣ . (٣٩) هود : ١٨ . (٤٠) النحل : ٩٠ . (٤١) الحج : ٧١ . (٤٢) إبراهيم : ٤٢ . (٤٣) هود : ١٠٢. (٤٤) الشورى : ٤٠- ٤٢ .

ممارسة النشاط الخلقي: عبادة وفريضة

الدكتور محمد مبين سليم الندوي الأزهري
الأستاذ المساعد بمركز خليق أحمد نظامي للدراسات القرآنية ، جامعة علي كره الإسلامية

إن الله سبحانه وتعالى أرسل رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ويكمل به الدين و يتمم به مكارم الأخلاق ، وقد حدد الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه أن مقصد بعثته هو إتمام صالح الأخلاق، فعن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق " (١) .

ومن هنا فإن ممارسة النشاط الخلقي تشمل الدين كله وتدخل في جميع مجالات الحياة ، والمرء المسلم يمارس هذا النشاط كعبادة وفريضة ربانية في جميع شؤون الحياة الفردية والجماعية ، المهنية والعلمية ، النظرية والعملية ولكن كيف يمكن تحقيق العبادة بمفهومها الواسع في ممارسة الأخلاق النبوية ، فإن هذه الدراسة تعالج الموضوع وتجيب عليه بالتفصيل على النحو التالي :

إن ممارسة النشاط الأخلاقي النبوي عبادة وفريضة من ثلاث نواح :

الناحية الأولي : ناحية شمول الأخلاق للعبادات والعكس صحيح .

الناحية الثانية : ناحية الوسيلة ؛ فهو وسيلة لحفظ الدين ، والعقل والنفس والنسل والمال .

الناحية الثالثة : ناحية الامتثال لأوامر الله و نواهيه فعلا وتركا في مجال الأخلاق، وأداء الفريضة التي فرضها الله على الإنسان .

أما الناحية الأولى : فإن الأخلاق تشمل العبادة ، فالعبادة من صميم الأخلاق وأخلصها ، فهي خصلة خلقية كريمة ، ولا يستغني المؤمن منها طول

---

(١) ـ مسند أحمد ج:٩ ،ص:٥٦ ،رقم:٨٩٣٢. واللفظ له، وقال المحقق:إسناده صحيح، ورواه الحاكم في المستدرك ج:٢ ،ص:٦١٣، وقال: على شرطهما ، ووافقه الذهبي وقال العراقي في تعليقه على الإحياء:٢ ،ص:٢٢٤ :رواه أحمد و البيهقي والحاكم، وصححه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

حياته ، " وخلاصة ما نقوله هنا: إن العبادة عند المؤمن نوع من الأخلاق ؛ لأنها من باب الوفاء لله ، والشكر للنعمة ، والاعتراف بالجميل، والتوقير لمن هو أهل التوقير والتعظيم ، وكلها من مكارم الأخلاق عند الفضلاء من الناس . ومن ذلك نجد القرآن يعقب على أوصاف المؤمنين القانتين المطيعين لله بمثل هذه الجمل : (أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) (١) ، (أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) (٢)، والصدق فضيلة خلقية خالصة ، وإنما استحقوها - بل جعلت مقصورة عليهم - لأن أعلى مراتب الصدق ، وأثبتها وأبقاها هو الصدق مع الله رب العالمين ، وإذا كانت العبادة عند المؤمن لونا من الأخلاق المحمودة ، فالأخلاق عنده لون من العبادة المفروضة. . . ثم إن الأخلاق عبادة من ناحية أخرى ، وهي : أن مقياسه في الفضيلة والرذيلة ، ومرجعه فيما يأخذ وما يدع هو أمر الله ونهيه ، فالضمير وحده ليس بمعصوم ، وكم من أفراد وجماعات رضيت ضمائرهم بقبائح الأعمال ، والعقل وحده ليس بمأمون ، لأنه محدود بالبيئة والظروف ، ومتأثر بالأهواء والنزعات ، وفي الاختلاف الشاسع للفلاسفة الأخلاقيين في مقياس الحكم الخلقي دليل واضح على ما نقول .. والعرف لا ثبات له ولا عموم ، لأنه يتغير من جيل إلى جيل ، وفي الجيل الواحد من بلد إلى بلد ، وفي البلد الواحد من إقليم إلى إقليم . لذلك التجأ المؤمن إلى المصدر المعصوم المأمون الذي لا يضل ولا ينسى ، ولا يتأثر ولا يجور ، وذلك هو حكم الله (وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) (٣)" (٤) .

وأما الناحية الثانية: فإن من مقاصد الشريعة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم : حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال ، ولا تتم تلك

---

(١) - سورة البقرة، الآية :١٧٧.
(٢) - سورة الحجرات، الآية ١٥.
(٣) - سورة المائدة، الآية ٥٠.
(٤) العبادة في الإسلام للدكتور يوسف القرضاوي،ص:١٢٧ - ١٢٩. ويراجع أيضا: بحث" خرافة الضمير بلا إيمان" في الإيمان والحياة، للمؤلف نفسه، ص:٢٤٩، وما بعدهاالمكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية عشرة،١٤١٢هـ - ٢٠٠١م.

المقاصد إلا بالخلق ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب كما هو مقرر في الأصول (١) .

وأما الناحية الثالثة : فنجد أن الله سبحانه وتعالى ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم يأمران بالأخلاق الحسنة وينهيان عن الأخلاق السيئة ، والقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة مليئان بمثل تلك الأوامر والنواهي ، التي تمثل المنهج المتكامل لتزاول النشاط الأخلاقي النبوي في عالم البشر والحياة الدنيا .

فعلي المرء المسلم أن يلبي أمر ربه ورسوله ونواهيهما ، ويقوم بتزاول النشاط الأخلاقي النبوي على وجه الإخلاص والإتقان ، فمثله كمثل الأوامر والنواهي في الشعائر التعبدية سواء بسواء ، وربما يزيد تأكيدا وأهمية بكونه متعلقا بحقوق العباد ، فلا تفيد العبادات النافلة مع وجود الأخلاق السيئة على وجه الكمال كما ينبغي ، بل ينال صاحب الخلق الحسن درجة الصائم القائم بخلقه الحسن كما نفهم من النصوص الآتية:

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أتدرون ما المفلس ؟ " . قالوا : المفلس فينا من لا درهم له و لا متاع ، فقال : " إن المفلس من أمتي ، من يأتي يوم القيامة بصلاة و صيام و زكاة ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته ، قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار " (٢) ، وعن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله

---

(١) ـ أنظر: البحر المحيط ١ في أصول الفقه للزركشي، ج:١ ص: ٢٢٣ ، مسألة ما لايتم الواجب إلا به. (وزراة الأوقاف والشئون الإسلامية ، الكويت ، الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ ١٩٩٢م

(٢) ـ صحيح مسلم بشرح النووي،ج: ١٦ ،ص:٣٥١ ـ ٣٥٢، رقم:٦٥٢٢. واللفظ له، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، و سنن الترمذي،تحفة الأحوذي،ج:٦، ص:٢٨٩ ،رقم:٢٤١٨. كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في شأن الحساب، والقصاص، ومسند أحمد ،ج: ٨،ص:١٣١ ،رقم:٨٠١٦.

عليه وسلم يقول: " إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم " (١) ، وعن أبي الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ " قالوا: بلى ، قال: " صلاح ذات البين ، فإن فساد ذات البين هي الحالقة " (٢) ، وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رجل : يا رسول الله ، إن فلانة يُذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها ؟ قال : " هي في النار " قال : يا رسول الله ، فإن فلانة يذكر من قلة صيامها وصدقتها وصلاتها ، وإنها تصدق بالأثوار من الأقط ، و لا تؤذي جيرانها بلسانها ؟ قال : " هي في الجنة " (٣) .

ولكي تتحقق العبودية الكاملة لله عز وجل في النشاط الأخلاقي ،

---

(١) ـ سنن أبي داود[عون المعبود]، ج:٨، ص:١٩٥، رقم:٤٧٩٠، واللفظ له ، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، وقال المحقق: حديث صحيح، ومسند أحمد ،ج:١٧، ص:٣٠٧، رقم الحديث : ٢٤٢٣٦. بلفظ" درجات قائم الليل و صائم النهار". و قال المحقق: إسناده صحيح. وله ثلاثة شواهد؛ أحدها: عن عمرو ابن العاص رضى الله عنه في مسند أحمد ،ج:٦، ص:٢٠٦ ،رقم:٦٦٤٨. وقال المحقق: إسناده صحيح، وثانيها: عن أبي الدرداء رضى الله عنه في سنن الترمذي [تحفة الأحوذي] ج:٥، ص:٤١٢ رقم:٢٠٠٣. وقال أبو عيسى: غريب من هذا الوجه، وقال المحقق: حديث صحيح لغيره، وثالثها: عن أبي هريرة رضى الله عنه في مستدرك الحاكم،ج:١ ،ص:٦٠، وقال: صحيح على شرط مسلم، و وافقه الذهبي.

(٢) ـ سنن الترمذي، [تحفة الأحوذي]، ج:٦، ص:٣٧٧، رقم:٢٥٠٩. واللفظ له ، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، [رقم: ٥٦] وقال أبو عيسى: هذا حديث صحيح، ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:" هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين" وقال المحقق: حديث صحيح، و سنن أبي داود[عون المعبود]،ج:٨، ص:٢٦٤ ،رقم:٤٩١١. كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين، وقال المحقق: حديث صحيح، ومسند أحمد ،ج:١٨ ،ص:٥٧١ ،رقم:٢٧٣٨١. وقال المحقق: إسناده صحيح.

(٣) ـ مسند أحمد ،ج:٩ ،ص:٢٧٨ ـ ٢٧٩ ، رقم:٩٦٣٨. واللفظ له ، وقال المحقق:" إسناده صحيح، وقال الهيثمي: رجال أحمد ثقات، ١٦٩\٨ ، والحديث عند ابن حبان ٥٠٣ ،رقم:٢٥٥٤(موارد)، والحاكم، ١٦٦\٤ ، وصححه ووافقه الذهبي".

ويحصل المرء على رضوانه وقربه يجب مراعاة الأمور الآتية :

١ ـ أن يكون النشاط الأخلاقي بنية العبادة علما وعملا أو خلقا وسلوكا (١) .

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما الأعمال بالنية ، وإنما لامرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه " (٢) .

٢ـ أن يكون النشاط الأخلاقي امتثالا وطاعة لله ورسوله وفق الأحكام التي وضعها الله ورسوله في منهجه التعليمي للأخلاق (٣) .

٣ ـ أن يكون النشاط الأخلاقي ابتغاء لرضوان الله وحبه ؛ ويستنبط ذلك من النصوص الآتية : قال تعالى : (لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) ، وقال تعالى : (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ) (٤) ، وعن عامر بن سعد عن أبيه رضى الله عنه قال : عادني النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع من وجع أشفيت منه على الموت، فقلت : يا رسول الله ، بلغ بي من الوجع ما ترى ، وأنا ذو مال ، ولا يرثني إلا ابنة لي واحدة ، أفأتصدق بثلثي مالي ؟ قال : " لا " . قلت

---

(١) ـ النية والقصد في العمل يجعله عبادة ويحوله من العادات إلى مجال القربات إلى الله ، يراجع للتفصيل: فتح الباري لابن حجر، ج:١ ص:١٨ وما بعدها، باب كيف كان بدأ الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم الحديث:١.

(٢) ـ صحيح مسلم بشرح النووي،ج: ١٣ ص:٥٥ ،رقم: ٤٩٠٤ . واللفظ له، كتاب الجهاد، باب قوله صلي الله عليه وسلم "إنما الأعمال بالنية "، و صحيح البخاري،(الفتح)،ج: ١ص :١٥ ، رقم : ١. كتاب بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم .

(٣) ـ يراجع للتفصيل: الموافقات للشاطبي،ج:٢، ص:٢٦٤، وما بعدها. وص:٣١٧ ـ ٣١٨، المسألة الثامنة، قصد مجرد الامتثال في شرع لمصلحة.

(٤) سورة الرعد، الآية:٢٢.

أفأتصدق بشطره ؟ قال : " لا " قلت : فالثلث ؟ قال : " والثلث كثير ، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة ، يتكففون الناس ، ولست تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها ، حتى اللقمة تجعلها في في امرأتك " قلت : يا رسول الله، آأخلف بعد أصحابي ؟ قال : " إنك لن تخلف فتعمل عملا تبتغي به وجه الله إلا ازددت به درجة ورفعة ،... " (١) ، وعن أنس رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر ، كما يكره أن يقذف في النار " (٢)، وعن أبي أمامة الباهلي رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : أرأيت رجلا غزا ، يلتمس الأجر والذكر ماله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا شيء له " فأعادها ثلاث مرات، يقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا شيء له " ثم قال : " إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا ، وابتغي به وجهه " (٣) ، وعن سهل بن معاذ الجهني عن أبيه رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أعطى لله تعالى ومنع لله وأحب لله وأبغض لله وأنكح لله فقد استكمل إيمانه " (٤) .

---

(١) ـ صحيح البخاري، الفتح، ج:٧، ص:٧١٢، رقم:٤٤٠٩. واللفظ له ، كتاب المغازي، باب حجة الوداع، و صحيح مسلم بشرح النووي، ج: ١١، ص:٧٩ـ ٨٢، رقم:٤١٨٥. كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث.

(٢) ـ صحيح البخاري، الفتح، ج: ١، ص:٧٧، رقم:١٦. واللفظ له، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، و صحيح مسلم بشرح النووي، ج: ٢، ص:٢٠٤، رقم:١٦٣. كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان.

(٣) ـ سنن النسائي، ج:٣، ص:٣٢٧، رقم:٣١٤٠ واللفظ له كتاب الجهاد، باب من غزا يلتمس الأجر والذكر، وقال المحقق:" حسن، انفرد به النسائي: وأورده الألباني في " الصحيحة"(٧٢/١) حديث(٥٢) وقال: هذا حديث حسن".

(٤)مسند أحمد، ج:١٢، ص:٢٥٥، رقم:١٥٥٧٥. واللفظ له ، وقال المحقق: إسناده صحيح، والمصدر السابق، ص:٢٥٠، رقم:١٥٥٥٤. وقال المحقق: إسناده حسن، وهو عند الترمذي، ٦٧٠١٤، رقم:٢٥٢١، في القيامة باب ٦٠، وحسنه من طريق سهل بن

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في شرح حديث حلاوة الإيمان : قال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة : إنما عبر بالحلاوة لأن الله شبه الإيمان بالشجرة في قوله تعالى مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً (١) فالكلمة هي كلمة الإخلاص ، والشجرة أصل الإيمان ، وأغصانها اتباع الأمر واجتناب النهي ، وورقها ما يهتم به المؤمن من الخير ، وثمرها عمل الطاعات ، وحلاوة الثمرة ، وغاية كماله تناهي نضج الثمرة وبه تظهر حلاوتها ، ... وقال البيضاوي : بالحب هنا الحب العقلي الذي هو إيثار ما يقتضي العقل السليم رجحانه ، وإن كان على خلاف هوى النفس ، كالمريض يعاف الدواء بطبعه فينفر عنه ، ويميل إليه بمقتضى عقله فيهوى تناوله ، فإذا تأمل المرء أن الشارع لا يأمر ولا ينهى إلا بما فيه صلاح عاجل أو خلاص آجل ، والعقل يقتضي رجحان جانب ذلك، تمرن على الائتمار بأمره بحيث يصير هواه تبعا له ، و يلتذ بذلك التذاذا عقليا ، إذ الالتذاذ العقلي إدراك ما هو كمال وخير من حيث هو كذلك ، وعبر الشارع عن هذه الحالة بالحلاوة لأنها أظهر اللذائذ المحسوسة، قال : وإنما جعل هذه الأمور الثلاثة عنوانا لكمال الإيمان لأن المرء إذا تأمل أن المنعم بالذات هو الله تعالى ، وأن لا مانح ولا مانع في الحقيقة سواه ، وأن ما عداه وسائط ، وأن الرسول هو الذي يبين له مراد ربه، اقتضى ذلك أن يتوجه بكليته نحوه : فلا يحب إلا ما يحب ، ولا يحب من يحب إلا من أجله ، وأن يتيقن أن جملة ما وعد وأوعد حق يقينا . ويخيل إليه الموعود كالواقع... (فائدة): فيه إشارة إلى التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل " (٢) .

علمنا من النصوص السابقة أن الأخلاق في المنهج النبوي هي : " لله وليست للبشر ، ولا لأحد غير الله ، الصدق لله ، والوفاء بالعهد لله ، وانتقاء

معاذ ، وهو في سنن الترمذي، لتحفة الأحوذي،ج:٦، ص:٣٨٨ ،رقم:٢٥٢١، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه،لرقم:٢٦٠ وقال أبو عيسى: هذا حديث منكر، وقال المحقق: "حديث صحيح، إسناده حسن، وله شاهد من حديث أبي أمامة بإسناد حسن أيضا ، وأخرجه أبو داود(٤٦٨١)" انتهى كلامه.

(١) ـ سورة إبراهيم، الآية ٢٤.

(٢) ـ فتح الباري،ج:١ ،ص:٧٧ ـ ٧٨.

المحرمات في علاقات الجنس لله ، والعفو والصفح لله ، والانتصار من الظلم لله ، وإتقان العمل لله ، كلها عبادة لله ، تقدم لله وحده خشية وتقوى ، وتطلعا إلى رضاه ، إنها ليست صفقة بشرية للكسب والخسارة، إنما هي صفقة تعقد مع الله " (١) ، وإنما هي " أخلاق ربانية ، باعثها الإيمان بالله ، و حاديها الرجاء في الآخرة ، وغرضها رضوان الله ومثوبته" (٢) ، وهدفها عبادة الله وحده التي خلق من أجلها الإنس والجن .

٤ ـ أن يكون النشاط الأخلاقي العام في عالم البشر مصحوبا بالإيمان والأخلاق المتعلقة به ، نحو التقوى والشكر والاستغفار ؛ ويستنبط ذلك من النصوص الآتية :

التقوى : حدد الله تعالى هدف الأخلاق ألا وهو التقوى فقال تعالى ـ بعد ذكر عدة أخلاق نحو التوحيد والإحسان إلى الوالدين والنهي عن قتل الأولاد من إملاق و القرب من الفواحش ما ظهر منها وما بطن وقتل النفس وأخذ مال اليتيم بالباطل ، و الأمر بإيفاء الكيل والميزان بالقسط ، والعدل في القول وإيفاء عهد الله واتباع الصراط المستقيم : (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (٣) .

الشكر : قال تعالى : هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٤) .

الاستغفار : قال تعالى : وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥) .

---

(١) ـ دراسات قرآنية ، للشيخ محمد قطب، ص:١٤٢، لدار الشروق، القاهرة، الطبعة السابعة، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م.

(٢) ـ العبادة في الإسلام، للدكتور يوسف القرضاوي، ص:٤٦٢.

(٣) ـ سورة الأنعام، الآية :١٥٣. ويراجع أيضا: آل عمران، الآيتان:١٤ ـ ١٥، و سورة المائدة، الآية :٨، سورة التوبة، الآيتان:٤ و ٧.

(٤) ـ سورة الأعراف، الآية:١٨٩.

(٥) ـ سورة هود، الآية:٥٢.

(٥) ـ أن يكون النشاط الأخلاقي مبنيا علي الاستقامة والثبات علي عبادة الله في السراء والضراء ؛ قال تعالى : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١) ، وقد وردت نصوص كثيرة في ابتلاء الإنسان في عالم البشر بالسراء والضراء ، وطلبت من المؤمن الشكر على ما يبتلى بالسراء والصبر على ما يبتلى بالضراء (٢) .

٦ ـ وأن لا يغفل النشاط الأخلاقي وتزاول العمل الخلقي في المعاملة مع الزوجة والأولاد ، ونحوها عن ذكر الله ، وابتغاء ما عنده سبحانه وتعالى، و نستدل على ذلك بقوله تعالى : الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٣) ، وقوله جل شأنه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ، وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ، وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٤) ، وقوله : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٥) .

وهكذا وبهذه الطريقة تكون ممارسة النشاط الأخلاقي عبادة محضة، والإنسان يكتسب بها درجات الصائم القائم ، والقربات عند الله تعالى ، ويحصل على أقرب منزلة من الرسول صلى الله عليه وسلم يوم القيامة .

---

(١) ـ سورة الحج ، الآية : ١١.

(٢) ـ يراجع لمعرفة النصوص وطرق تطبيق الشكر و الصبر:إحياء علوم الدين للغزالي،ج:٤،ص:٨٣، وما بعدها، كتاب الصبر والشكر.

(٣) ـ سورة الكهف،الآية : ٤٦.

(٤) سورة المنافقون، الآيات:٩ ـ ١١.

(٥) ـ سورة التغابن، الآيات:١٤ ـ ١٦.

الفقه الإسلامي

المذاهب الفقهية وأصولها

(الحلقة الثانية الأخيرة)

الدكتور/ خورشيد أشرف إقبال الندوي (لكناؤ)

المذهب الشافعي :

وصاحبه الإمام محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي الشافعي (١٥٠ - ٢٠٤ هجرية) ، ولد في مدينة غزة، ونشأ يتيما فقيراً حيث توفي والده ، والشافعي ابن سنتين ، فانتقلت به أمه إلى مكة المكرمة موطن آبائه وعشيرته ، فنشأ بها وحفظ القرآن الكريم صغيراً ، وأقام بالبادية مدة فأفاد الفصاحة والأدب والشعر ، وتفقه في مكة على مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة المكرمة في ذلك الوقت ، ورحل في طلب العلم إلى المدينة المنورة فتلقى الفقه والحديث عن الإمام مالك بن أنس ، وابراهيم بن سعد الأنصاري ، ومحمد بن سعيد بن فديك وغيرهم . ثم سافر إلى العراق وأخذ الفقه عن محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة رحمه الله ، ثم سافر إلى مصر وأقام فيها إلى أن توفى بها ، حفظ الشافعي وهو ابن ثلاث عشرة سنة تقريبا كتاب الموطأ للامام مالك ،قد بلغ الشافعي الإمامة في الفقه والحديث واللغة والأصول ، وقد كان رحمه الله غاية في الشجاعة والكرم .

قال فيه الإمام أحمد بن حنبل : " كان الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن ، فانظر هل لهذين من عوض أو خلف " . وقال أيضا : كان أفقه الناس في كتاب الله وسنة رسوله .

ومن أبرز تلاميذ الشافعي الذين أسهموا في نقل فقهه ونشر مذهبه: يوسف بن يحيى البويطي ، وإسماعيل بن يحيى المزني المصري ، والربيع بن سليمان الجيزي ، والربيع بن سليمان المرادي .

وانتشر مذهبه في مصر والعراق ومنطقة مليبار بالهند .

أصول المذهب :

إن منهج الإمام الشافعي مزيج من فقه الحجاز المعتمد على الحديث ، وفقه العراق المتوسع في الرأي ، وهو المنهج الذي أنضجه عقل متوهج ، عالم بالقرآن والسنة ، بصير بالعربية وآدابها خبير بأحوال الناس وقضاياهم ، قوي الرأي والقياس؛ وذلك لأن الشافعي جاء في الوقت الذي اشتد فيه الجدل بين المدرستين فأخذ موقفا وسطا ، وحسم الجدل الفقهي القائم بينهما بما تيسر له من الجمع بين المدرستين بعد أن تلقى العلم وتتلمذ على كبار أعلامهما مثل مالك بن أنس من مدرسة الحديث ومحمد بن الحسن الشيباني من مدرسة الرأي .

يعتمد المذهب الشافعي في استنباطاته وطرائق استدلاله على الأصول التي

وضعها الإمام الشافعي ودونها في كتابه الشهير " الرسالة " ، بحيث يعد أول من دون كتابا متكاملا في علم أصول الفقه ، وهي : القرآن ، والسنة ، والإجماع ، والقياس .

ويقول الشافعي في كتابه " الأم " الأصل قرآن أو سنة ، فإن لم يكن فقياس عليهما ، وإذا اتصل الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصح الإسناد به فهو المنتهى ، والإجماع أكبر من الخبر المفرد ، والحديث على ظاهره ، وإذا احتمل المعاني فما أشبه منها ظاهره أولاها به، وإذا تكافأت الأحاديث فأصحها إسناداً أولاها ، وليس المنقطع بشيء ما عدا منقطع ابن المسيب . ولا يقاس أصل على أصل ، ولا يقال للأصل لِمَ وكيف ؟ وإنما يقال للفرع لِمَ ؟ فإذا صح قياسه على الأصل صح وقامت به الحجة .

وبناءً عليه تتلخص مميزات أصول مذهبه فيما يلي :

أ- يرى الإمام الشافعي : " أنَّ القرآن والسنة سواء في التشريع ، لأن القرآن والسنة في منزلة واحدة ، فلا يمكن النظر في القرآن دون النظر في السنة التي تشرحه وتبينه ، فالقرآن يأتي بالأحكام العامة والقواعد الكلية ، والسنة هي التي تفسر ذلك ، فهي التي تخصص عموم القرآن أو تقيد مطلقه ، أو تبين مجمله، ولايشترط الشافعي في الاحتجاج بالسنة غير الاتصال وصحة السند ، ومن ثم يدافع عن السنة ويرد على من يشترط في السنة التواتر والشهرة ونحوها، وعدم مخالفة الحديث لعمل أهل المدينة ؛ لأنَّه أصل ، والأصل لا يُقال له لمَ وكيف ؟ ولكنه لم يقبل المراسيل إلا مراسيل سعيد بن المسيب ؛ لأنَّ لها طرقا متصلة عنده .

ووقف الشافعي حياته على الدفاع عن السنة ، وإقامة الدليل على صحة الاحتجاج بالخبر الواحد ، وكان هذا الدفاع سببا في علو قدر الشافعي عند أهل الحديث حتى سموه (ناصر السنة) . ولعل الذي جعل الشافعي يأخذ بالحديث أكثر من أبي حنيفة حتى إنه يقبل خبر الواحد متى توافرت فيه الشروط ، انه كان حافظا للحديث بصيرا بعلله ، لا يقبل منه الا ما ثبت عنده، وربما صح عنده من الأحاديث ما لم يصح عند أبي حنيفة وأصحابه .

ب- يقرر الشافعي أن الإجماع في منزلة بعد الكتاب والسنة وقبل القياس ، والإجماع عنده: أن يجمع علماء العصر على أمر فيكون إجماعهم حجة فيما أجمعوا عليه ، والشافعي لا يعترف بالإجماع السكوتي ؛ لأنه يشترط في الإجماع أن ينقل عن كل عالم رأيه وتتفق الآراء جميعها في الأمر .

قول الصحابي : يأخذ الشافعي بقول الصحابي في الأحكام إذا لم يعلم له مخالف . أما إذا كان للصحابة أقوال مختلفة في المسألة ، فإنه يأخذ من تلك الأقوال ما يراه أقرب إلى القرآن والسنة .

ج- القياس : لا يأخذ الشافعي بالقياس الذي لا يقوم على علة منضبطة ظاهرة، إلا الذي يعتقده صحيحًا ، ومن ثم يرسم الشافعي حدود القياس ومراتبه ، ويبين الشروط التي يجب توافرها في الفقيه الذي يقيس ، ويميز القياس عن غيره من أنواع الاستنباط بالرأي .

د- الاستحسان : رفض الشافعي الاحتجاج بـ " الاستحسان " مخالفاً في ذلك المالكيَّة والحنفيَّة معاً ، وشدد النكير على قائليه ، وقرر أنه قول بالرأى وتشريع بالهوى والتشهي ، وأنه قول بدون اجتهاد ، إذ ليس له منهج يضبطه ولا قواعد تقيده . كما كتب في رد الاستحسان كتابه " إبطال الاستحسان " وقال قولته المشهورة : " من استحسن فقد شرع " .

ه- رد الإمام الشافعي المصالح المرسلة وأنكر حجيتها ، ولذا لا نجد في كتب الشافعية ذكرا لها ، إلا أن الشافعية عملوا بها تحت اسم قياس القواعد، وهو " إعطاء الواقعة حكما يتفق مع قواعد الشرع العامة " .

هذا ، وأنكر الإمام الشافعي الاحتجاج بعمل أهل المدينة ، كما أنكر على الحنفية تركهم العمل بكثير من السنن لعدم توفر ما وضعوه فيها من الشروط كالشهرة ونحوها ، كما أنه لم يقتصر - كمالك- على الأخذ بأحاديث الحجازيين ، والإمام الشافعى واقعي في فقهه ، فلم يفرض المسائل و حلولها .

المذهب الحنبلي :

نسبة إلى الإمام أحمد بن حنبل بن هلال الشيباني (١٦٤ - ٢٤١ هجرية) ، ولد ببغداد ونشأ بها ، توفي أبوه وهو صغير فقامت أمه على تربيته وتنشئته ، رحل في طلب العلم إلى الكوفة والبصرة ، والمدينة المنورة، والشام واليمن ، وتلقى العلم من مشاهير علماء الأمصار ، وسمع من كبار المحدثين ، ونال قسطاً وافرًا من العلم والمعرفة .

وكان الإمام أحمد يتمتع بقوة الفهم والإدراك والحفظ ، فقد حفظ عددًا كبيرًا من أحاديث الرسول ، وكان الإمام كثير التصدق بالمال على الفقراء والمحتاجين .

وكانت شخصية الإمام أحمد رمزًا للصمود والثبات على الإيمان الراسخ ورفض الأفكار الدخيلة على الإسلام والعقيدة الإسلامية .

قال فيه الإمام الشافعي : " خرجت من بغداد فما خلّفت بها رجلًا أفضل ولا أعلم ولا أفقهَ من ابن حنبل " .

وعن الشافعي قال : " أحمد إمام في ثماني خصال ؛ إمام في الحديث ، إمام بالفقه ، إمام في القرآن ، إمام في اللغة ، إمام في السنة ، إمام في الزهد ، إمام في الورع ، إمام في الفقر " .

وقال إبراهيم الحربي : " رأيت أحمد بن حنبل ، فرأيت كأنّ الله جمع له علم الأوّلين والآخرين من كل صنف يقول ما يشاء ويمسك عمّا يشاء " .

وقال بعض العلماء : " لو أحمد بن حنبل لم يبذل نفسه لما بذلها له، لذهب الإسلام " .

ألف الإمام أحمد كتبًا عديدة ، أهمها مسند الإمام أحمد ، جمع فيه ما رواه من أحاديث ، وهي تبلغ ما يقرب من (٤٠) ألف حديث انتقاها من (٧٥٠) ألف حديث ، والمسند مرتب على طريقة المسانيد المعروفة في علم الحديث ، ويعتبر

موسوعة لأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وله أيضا كتاب الناسخ والمنسوخ ، والعلل ، والسنن في الفقه .

ومن أبرز تلاميذه صالح ابن الإمام أحمد ، وابنه الآخر عبد الله وأبو بكر الأثرم والمروزي وأحمد بن محمد بن الحجاج وإبراهيم الحربي ، ومن أشهر رجال الحنابلة الذين قاموا بنشر المذهب ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية ، وابن قدامة ، ويعد المذهب الحنبلي من آخر المذاهب الأربعة من الناحية الزمنية .

أصول المذهب :

كان الإمام أحمد عليماً بالأحاديث ، الأمر الذي وفّر له ثروة هائلة في العلم مكنته من الاستنباط . وكان يرى أن يقوم الفقه على النص من الكتاب أو الحديث ، وأنكر على أستاذه " الشافعي " أخذه بالرأي ، واعتبر الحديث أفضل من الرأي ، وقد وسّع باب القياس مما جعل الأحكام أقرب إلى مرامي الشارع ومقاصده المستوحاة من أعمال الرسول وأقواله .

ومن ثم كان مذهب ابن حنبل من أكثر المذاهب السنية محافظةً على النصوص وابتعاداً عن الرأي .

اعتمد ابن حنبل في مذهبه على الأصول التالية : الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس ، وفتوى الصحابة عند عدم النص ، والأخذ بالحديث المرسل، ولم يقبل بالقياس إلا في حالات نادرة .

وتفصيله كالآتي :

أ- نصوص الكتاب والسنة المرفوعة ، فإذا وجد النص من القرآن أو السنة أفتى الإمام بموجبه وإن رويت عن الصحابة أو التابعين أقوال بخلافه، فهو لايقدم على الحديث الصحيح عملا ولا رأيا ولا قياسًا ولا قول صحابي ولا عدم العلم بالمخالف الذي يطلق عليه بعض الفقهاء اصطلاح الإجماع . و نصوص القرآن و السنة عند الإمام في مرتبة واحدة ، فحجية السنة ثابتة بالكتاب والعكس صحيح ، لذا كان الإمام يرد فتاوي كبار الصحابة إذا وجد في فتاويهم مخالفة للكتاب أو السنة .

ب- فتاوى الصحابة : إذا وجد الإمام أحمد في نازلة لأحد الصحابة قولا لا يخالفه فيه غيره أفتى بموجبه ، وكان يقول : ما أجبت في مسألة إلا بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن لم أجد أخذت برأي الخلفاء الراشدين ، فان لم أجد أخذت عن أصحاب رسول الله الأكابر فالأكابر .فان لم أجد فعن التابعين ، ولم يسم أحمد هذا إجماعا كما يقول الشافعي ، ولكنه لايقدم عليه رأيا ولا قياسا ولا عملا لأحد .

ج- الاختيار من فتاوى الصحابة : إذا لم يكن في الواقعة كتاب ولا سنة، واختلف الصحابة في حكمها على أقوال : فإن الإمام أحمد يتخير من هذه الأقوال أقربها إلى الكتاب والسنة ، ولا يعدل عن أقوال الصحابة إلى سواها ، وإذا رأى خلافا لا اتفاقا حكى الخلاف .أي أنه يذكر كل الآراء و لا يجزم بقول .

د - الاحتجاج بالحديث المرسل والضعيف : إذا لم يجد ابن حنبل في النازلة حديثا صحيحا ، ولا قولا لصحابي كان العمل بالحديث الضعيف عنده أولى من القياس ، بشرط أن لا يكون الضعف شديداً يغلب على الظن أنه ليس من أحاديث النبي ؛ لأن القياس لا يلجأ إليه إلا عند الضرورة، ولا ضرورة مع وجود الحديث وإن كان مرسلا أو ضعيفا .

ه- القياس : إذا لم يكن في المسألة نص و لا قول أي صحابي ، ذهب الإمام أحمد إلى القياس فيستعمله للضرورة ، وهذا يعني أن الإمام أحمد كان يرى القياس ضرورة لا يُصار إليه إلا عند انعدام الأدلة التي تؤخذ منها الأحكام .

و - سد الذرائع والمصالح المرسلة والاستصحاب : كان ابن حنبل يعتمد على هذه القواعد للاجتهاد عند استنباط الأحكام من أصول الأدلة ، وكان يأخذ بها .

المذهب الظاهري :

ومؤسسه داود بن علي الأصبهاني الإمام الجليل ، العالم الرباني ، الفقيه المجتهد ، الثقة الثبت الذي ولد عام ٢٠٢ للهجرة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في " حقيقة الصيام " (٣٥ - ٣٦) : "وداود من أصحاب إسحاق . وقد كان أحمد بن حنبل إذا سئل عن إسحاق يقول : أنا أسأل عن إسحاق ؟ إسحاق يسأل عني . والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق وأبو عبيد وأبو ثور ومحمد بن نصر المروزي وداود بن علي ، ونحو هؤلاء كلهم فقهاء الحديث رضي الله عنهم أجمعين " .

و قال أبو الفتح الشهرستاني في كتابه " الملل والنحل " (١/ ١٧٠) : " أصحاب الحديث : وهم أهل الحجاز ؛ هم أصحاب مالك بن أنس ، وأصحاب محمد بن إدريس الشافعي ، وأصحاب سفيان الثوري ، وأصحاب أحمد بن حنبل ، وأصحاب داود بن علي الأصفهاني " .

ثم نصر مذهب داود الإمام أبو محمد ، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري ، عالم الأندلس في عصره ، وأحد أئمة الإسلام ، ولد بقرطبة سنة (٣٨٤هـ) وكانت له ولأبيه من قبله رياسة الوزارة وتدبير المملكة ، فزهد فيها وانصرف إلى العلم والتأليف ، فكان من صدور الباحثين فقيها حافظا يستنبط الأحكام من الكتاب والسنة ، بعيدًا عن المصانعة ، وانتقد كثيرًا من العلماء والفقهاء ، فتمالئوا على بغضه ، ونهوا عوامهم عن الدنو منه ، فأقصته الملوك وطاردته، فرحل إلى بادية ليلة من بلاد الأندلس فتوفي فيها وذلك سنة (٤٥٦هـ) .

ويعد كتابه " المحلى بالآثار في شرح المجلى بالاختصار " واحداً من أهم كتب الفقه الإسلامي ، وموسوعة فقهية عظيمة ، أثنى عليها الأكابر وعرف قدرها الأماجد ، استعرض فيها ابن حزم آراء معظم من سبقه وعاصره من الفقهاء، ولم يقف عند حد النقل ، بل كان يمحص الآراء تمحيصا دقيقا ويعرضها على ميزانه الدقيق ثم يخرج بالرأي الذي يترجح عنده بعد مناظرات فقهية ثرة وسوق للأدلة مبهر . ولقد أعان ابنَ حزم على إخراج المحلى في هذه

الصورة الموسوعية غزارةُ علم وكثرة محفوظ مع دقة نظر وصحة استدلال ، فأتى كتاباً فريداً لا يستطيعه إلا نوادر الرجال وجهابذة العلماء .

أما الاصول والمنهج الظاهري فهو على النحو الآتي :

أ ـ الأخذ بظواهر النصوص من الكتاب والسنة ما لم يدل دليل منهما أو من الإجماع على أنه يراد به غير الظاهر ، واعتماد ظاهر اللفظ بمعنى الظاهر وليس الحرفية وهو أنواع :

١- الظاهر القريب المفهوم من النص مباشرة (المنطوق)

٢- الظاهر البعيد أو الخفي : كاللوازم وما تدل عليه المعاني والكل يدل على الجزء وترتيب المقدمات المنتج نتائج . . .

٣- اعتماد عمومات الألفاظ ، وقد قال عنها الشوكاني : " . . . ثم لا يخفى على ذي لب صحيح وفهم صالح أن في عمومات الكتاب والسنة ومطلقاتهما وخصوص نصوصهما ما يفي بكل حادثة تحدث ويقوم ببيان كل نازلة تنزل ، عرف ذلك من عرفه وجهله من جهله "

ب ـ الأخذ بالإجماع بشرط أن يكون إجماع علماء الأمة قاطبة . ويستدل بالإجماع الواقع في عصر الصحابة فقط .

ج ـ لا يأخذ بالقياس مالم تكن العلة منصوصة في (المقيس عليه) ومقطوعًا بوجودها في (المقيس)

د- اعتماد استصحاب العقل وهو دليل العقل والنقل معا .

ه- مراعاة المصالح المعتبرة شرعا : أي ما نص عليها أو أجمع عليها أو استقرئت نصوصها أو اضطر إليها .

و- لا يعمل بالمرسل ، والمنقطع ، والاستحسان ، ولا بشرع من قبلنا ، ولا يأخذ بالرأي ، ولا بالمفهوم المخالف ، ويحرم التقليد على العامي كما هو حرام على العالم .

ويشمل هذا المذهب نظريات وأحكاما فى كثير من اليسر والسعة على الناس وبخاصة فى جانب المعاملات التى تجرى بين الناس مثل: إيجاب نفقة الزوج المعسر على زوجته استناداً إلى قوله تعالى: (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف) البقرة ٢٢٨ .

ـ لاتجوز الوكالة فى الطلاق

ـ لايقع الطلاق إلا بأحد ألفاظ ثلاثة : الطلاق ، والتسريح ، والفراق وما اشتق منها إذا نوى بها الطلاق ، وما عدا هذه الألفاظ لايقع بها طلاق نوى بها طلاقا أولم ينو .

ـ الإشهاد على البيع والطلاق والرجعة واجب ، فلا يصح طلاق ولا رجعة بدون شاهدي عدل .

و هناك مذاهب أخرى كانت لها أتباع وجدت حتى الآن ، وإن لم تجد من الشهرة ما لقي بها المذكورة أعلاه ، ومعظمها مذاهب شيعية منتشرة في بلاد شتى ، وهي :

المذهب الزيدي :

ينسب هذا المذهب إلى الإمام زيد بن علي زين العابدين بن الحسين السبط

بن الإمام علي بن أبي طالب . نشأ الإمام زيد بن علي في أحضان والده الإمام زين العابدين وأخيه الأكبر الإمام محمد الباقر ودرس على يديهما العقيدة المحمدية ، وكان الإمام زيد عالماً مجتهداً معروفاً بالكمال ، عارفاً بعلوم القرآن وأبواب الفقه ووجوه القراءات ، وتوفي سنة ١٢٢ للهجرة .

قال الإمام زيد : " والله لا تأتونني بحديث تصدقون فيه إلا أتيتكم به من كتاب الله " . والإمام أبوحنيفة النعمان يقول عن الإمام زيد : " ما رأيت في زمنه أفقه منه ولا أعلم ولا أسرع جواباً ولا أبين قولاً ، لقد كان منقطع القرين " . وقال المحدث الكبير سليمان بن مهران الأعمش : " ما رأيت فيهم - يعني أهل البيت - أفضل منه ولا أفصح ولا أعلم". وقال الإمام زيد عن نفسه : " والله ما كذبت كذبة منذ عرفت يميني من شمالي ، ولا انتهكت لله مَحْرَماً منذ عرفت أن الله يعاقب عليه " . ويعد كتاب " المجموع " للإمام زيد من أهم كتب الزيدية وعمدتها ، وهو عبارة عن مجموعتين في : الفقه ، والحديث ، جمعها تلميذه عمر بن خالد الواسطي .

واختلفت هذه الطائفة الموجودة إلى يومنا عن باقي الشيعة ، حيث إنها رأت أن الإمامة ليست بالنص على شخص محدد ، وإنما الإمامة هي لأي شخص من نسل علي بن أبي طالب يخرج طالبا لها ، ويعتبر من أئمتهم يحيى بن زيد بن علي و محمد النفس الزكية وغيره .

أصول المذهب :

يميل هذا المذهب إلى فقه أهل العراق ، و لايختلف كثيراً عن فقه أهل السنة ، ويعتمد في استنباط الأحكام على القرآن والحديث والاجتهاد والقياس والاستحسان والمصالح المرسلة والاستصحاب

وهاكم خصائص أصولهم :

أ- تأخذ الزيدية الرواية عن آل البيت ، ولكنهم لايمتنعون عن الأخذ بالسنة التى رواها الجمهور ودوّنوها فى كتبهم ، والمروى عن الإمام زيد يتلاقى فى أكثر رواياته مع ما ترويه كتب السنة .

ب - المذهب الزيدى قريب من المذهب الحنفي في فروعه ، ومن أصوله اشتراط الاجتهاد في الأئمة ، يوجبون الاجتهاد على المسلمين ، فإن عجز المسلم عن الاجتهاد جاز له التقليد ، وتقليد آل البيت عندهم أولى من غيرهم .

المذهب الإمامي (الاثناعشرى) :

تؤمن الطائفة الاثناعشرية بأربعة عشر معصوم ، منهم اثنا عشر إماماً معصوما ، ويعتقدون بأن محمد المهدي ابن الحسن العسكري وهو عندهم الإمام الثاني عشر ، هو المنتظر الموعود الذي غاب عن الأنظار ثم سيعود ليملأ الأرض عدلاً .

وتعتبر الطائفة الاثناعشرية أكبر الطوائف الشيعية من حيث عدد السكان ، حيث يقدر عددها بحوالي ٨٥٪ من الشيعة ، وتوجد أتباع هذا المذهب في إيران والعراق ولبنان وافغانستان وآذربيجان وشبه القارة الهندية.

ومؤسسه هو محمد بن الحسن بن فروخ القمّي الذي توفي في سنة ٢٩٠ للهجرة . والإمامية هم أكبر طوائف الشيعة ، وقد يطلق اسم الشيعة ويراد بهم الإمامية خاصة ، وتعد فرقة الإسماعيلية والجعفرية من فرق الإمامية .

اشتهر هذا المذهب في إيران والعراق ولبنان وافغانستان وآذربيجان وشبه القارة الهندية .

أصول المذهب :

يعتمدون على القرآن ، والأحاديث التى رويت عن أئمتهم من آل البيت ، ويرفضون الإجماع ، ولا يأخذون بالقياس .

وإليكم تفصيله :

أ – القرآن : إنهم لا يعتقدون بهذا القرآن الكريم الموجود بأيدي الناس ، والمحفوظ من قبل الله العظيم ، مخالفين جميع المسلمين ، ومنكرين لجميع النصوص الصحيحة الواردة بشأن حفظه في القرآن والسنة ، ومعارضين كل ما يدل عليه العقل والمشاهدة ، مكابرين للحق وتاركين للصواب ، اتباعا للهوى والحقد وشهوة هدم الدين من أساسه ، هذا هو الاختلاف الحقيقي الأساسي بين جميع المسلمين والشيعة .

ب ـ السنة : الشيعة يردّون كتب السنة النبوية جملةً وتفصيلاً ، فلا يعتبرونها ولا يُقرّونها ، وترتّب على ردّهم للسنة أن يوجدوا بدائل ، وهذه البدائل هي أقوال الأئمة ، لذلك لا تجد لهم في كتبهم من الأحاديث ما هو مرفوع للنبي صلى الله عليه وسلم إلا نادراً ، وبالذات كتب الفقه الشيعي ، لا تجد فيها عن فلان عن فلان عن النبي صلى الله وسلم ، فمعظم الروايات تسند عن أئمتهم .

فالسنة عندهم هي : " كل ما يصدر عن المعصوم من قول أو فعل أو تقرير" . (الأصول العامة للفقه المقارن: محمد تقي الحكيم ، مؤسسة آل البيت (ع) للطبّاعة والنشر الطبعة الثانية ١٩٧٩م ، ص ١٢٢) . والمعصوم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ والأئمة الاثنا عشر ، أي لا فرق عندهم في هذا بين هؤلاء الإثنى عشر وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى . ولا فرق في كلام هؤلاء الأئمة الإثنى عشر بين سن الطفولة وسن النضج العقلي ؛ إذ إنهم لا يخطئون عمداً ولا سهواً ولا نسياناً طوال حياتهم .

لا يأخذون من السنة إلا التي رواها علماء الشيعة وأئمتهم المعصومون من الخطأ في نظرهم .

ج ـ الإجماع ليس حجةً عند الشيعة بدون وجود الإمام المعصوم ، فمدار حجية الإجماع على قول المعصوم ، وليس على نفس الإجماع ، فهم لم يقولوا بالإجماع، وإنّما قالوا بحجية قول الإمام المعصوم . لأنه كما يقولون: لو اتفق المجمعون على غير الواقع لأرشدهم إليه ، لأنه الأمين على أحكام الله .

إذن الإجماع عندهم بدون وجود الإمام الذي يعتقدون عصمته ليس حجة ، فمدار حجية الإجماع هو على قوله لا على نفس الإجماع ، فهم في الحقيقة لم يقولوا بحجة الإجماع ، وإنما قالوا بحجية قول المعصوم ، ودعواهم الاحتجاج

بالإجماع تسمية لا مسمى لها ، وهذا معناه نفى الاعتداد بالإجماع تمامًا مادامت الحجة هي في قول الإمام المعصوم .

د - ينكرون القياس بالكلية لعدم الحاجة إليه بعد أن دعوا عصمة الإمام من الخطأ ، وأنه يُوحى إليه بطريق الإلهام الصادق ، فكل مسألة لها حكمها عند الله وعند الرسول والأئمة من بعده .

ه - الإمام عند الإمامية معصوم من الذنوب صغيرها وكبيرها ، ومن السهو والنسيان والخطأ وغير ذلك مما يحدث من سائر الناس .

وهم بهذا قد وضعوا شخصية الإمام في مرتبة من التقديس تسمح لهم أن يعتبروا الإيمان به جزءا من الإيمان بالله عز وجل .

و - الإمامية بعد مخالفتهم لأهل السنة في الأصول يخالفونهم في كثير من الفروع، ومنها :

الطلاق عندهم لا يقع إلا أمام شاهدين لقوله تعالى : (وأشهدوا ذوي عدل منكم)

❖ زواج الكتابية حرام لقوله سبحانه : (ولاتمسكوا بعصم الكوافر)

❖ شرعية زواج المتعة ، وهو ما يكون بعقد ومهر أمام شهود إلى أجل ، ويثبتون به النسب والتوارث بين الزوجين .

المذهب الإباضي :

ينسب هذا المذهب إلى عبدالله بن إباض المقاعسي ، المري ، التميمي المتوفى سنة ٨٠ للهجرة ، قد اشتهرت هذه الفرقة بالإباضية من أوّل يوم ، وهذا يدل على أنّه كان لعبد الله بن إباض دور في نشوء هذه الفرقة وازدهارها ، وإن كانت الفرقة يطلقون على أنفسهم أسماء أخرى يشترك فيها سائر المسلمين كأهل الإسلام وأهل الحق أو جماعة المسلمين، وغير ذلك ؛ وذلك لأنّ جماعة الإباضية كانت حريصة على التخفي والتسترّ ولم تبد كجماعة خارجة ، وكان أوّل ظهور لها عندما راح عبدالله بن إباض يتحدّث باسمها ويبعث برسائل إلى الأمير الأموي عبدالله بن مروان ، فكان من الطبيعي أن تنسب هذه الجماعة إلى من أبدى للخليفة نفسه على أنّه صاحب الرأي والكلمة ، وكان من علمائهم وشجعانهم والمناظر باسمهم .

والإباضية فرقة من الخوارج ، إلا أنها أكثرها اعتدالاً . ويوجد أتباع هذا المذهب في سلطنة عمان .

أصول المذهب :

إن مصادر فقههم هو الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، ولكن المراد بالإجماع عندهم هو إجماع طائفتهم ، وفقه هذا المذهب معتدل إلى حد ما ، ومن صور الاعتدال فيه أنه لايمنع أن يتزوج أتباعه من بقية المسلمين ، و لايمنع التوارث بينهم وبين غيرهم ، ولايجيز قتال غيرهم إلا بعد الدعوة وإعلان القتال .

ويخالف فقه هذا المذهب الجمهور في إجازة الوصية للوارث ، والقول بالوصية الواجبة ومسائل أخرى كثيرة .

المذاهب الفقهية السنية التي قامت ثم اندثرت :

وثمة مذاهب سنية أخرى قامت ، وكانت لها أتباع ، إلا أنها لم تجد من يقوم بتدوينها ونشرها في الآفاق مثل المذاهب الأربعة ، فلم تلبث في تاريخ الدهر طويلا ، وهي :

مذهب سفيان الثوري :

هو أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي (٩٧ - ١٦١ هـ ، أمير المؤمنين في الحديث ، وأحد الأئمة الخمسة المجتهدين ، كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى ، ولد ونشأ في الكوفة ، وطلب العلم وهو حدث باعتناء والده المحدث سعيد بن مسروق الثوري ، وكان يتوقد ذكاء، صار إماماً أثيراً منظوراً إليه وهو شاب .

وله من الكتب " الجامع الكبير " ، و " الجامع الصغير " كلاهما في الحديث، وكتاب في (الفرائض) ، وكان آية في الحفظ ، من كلامه: ما حفظت شيئا فنسيته .

شهرته وأقوال العلماء فيه :

عن الوليد بن مسلم قال : " رأيت سفيان الثوري بمكة يستفتي ؛ ولم يخط وجهه بعد " ، وعن أبي المثنى قال : " سمعت الناس بمرو يقولون : قد جاء الثوري ، قد جاء الثوري ، فخرجت أنظر إليه فإذا هو غلام قد بقل وجهه"، وقال محمد بن عبيد الطنافسي : " لا أذكر سفيان الثوري إلا وهو يفتي ، أذكره منذ سبعين سنة، ونحن في الكتّاب ، تمر بنا المرأة والرجل فيسترشدوننا إلى سفيان يستفتونه ويفتيهم " .

قال الإمام الذهبي : " هو شيخ الإسلام ، إمام الحفاظ ، سيد العلماء العاملين في زمانه أبو عبد الله الثوري ، الكوفي ، المجتهد ، مصنف كتاب (الجامع)، وهو الصحيح الذي أجمع عليه أكثر المؤرخين .

وقال عبد الله بن المبارك : " كتبت عن ألف ومائة شيخ ، ما كتبت عن أفضل من سفيان " ، وقال عبد الله بن شوذب : " سمعت صهراً لأيوب يقول: قال أيوب: " ما لقيت كوفياً أفضله على سفيان " ، وقال البراء بن رستم البصري سمعت يونس بن عبيد يقول : " ما رأيت أفضل من سفيان ، فقال له رجل يا أبا عبد الله ! رأيت سعيد بن جبير ، وإبراهيم ، وعطاء ، ومجاهداً ، تقول هذا ؟ فقال : هو، ما رأيت أفضل من سفيان " .

وقال أبو سعيد الأشج : " سمعت ابن إدريس يقول : ما رأيت بالكوفة رجلاً أتبع للسنة ، ولا أود أني في مسلاخه ؛ من سفيان الثوري " .

منهجه وأقواله :

كان - رحمه الله - على منهج الصحابة والتابعين - رضوان الله عليهم أجمعين - وأهل السنة والجماعة ، وكانت له اجتهادات إذ كان يثلث بعلي ، وكان على مذهب قومه في النبيذ ، وقال : " إن قوماً يقولون : لا نقول لأبي بكر

وعمر إلا خيراً ، ولكن علي أولى بالخلافة منهما ، فمن قال ذلك فقد خطأ أبا بكر ، وعمر ، وعلياً ، والمهاجرين ، والأنصار ، ولا أدري ترتفع مع هذا أعمالهم إلى السماء " .

قال عبد الرزاق : سمعت مالكاً ، والأوزاعي ، وابن جريج ، والثوري ، ومعمراً يقولون : " الإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص " ، وقال معدان : سألت الثوري عن قوله - تعالى - : { وهو معكم أين ما كنتم } قال : علمه " ، وسئل عن أحاديث الصفات فقال: " أمروها كما جاءت " ، وقال " من زعم أن { قل هو الله أحد } مخلوق فقد كفر بالله - عز وجل " ، وعن عثام بن علي قال : " سمعت الثوري يقول : لا يجتمع حب علي وعثمان إلا في قلوب نبلاء الرجال " ، وقال أبو سعيد الأشج : " سمعت ابن إدريس يقول : ما رأيت بالكوفة رجلا أتبع للسنة ، ولا أود أني في مسلاخه ؛ من سفيان الثوري " .

مذهب الإمام الأوزاعي :

هو الإمام أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الأوزاعي ولد فى سنة ٨٨ وتوفى فى عام ١٥٧ للهجرة ، بدأ اهتمام الإمام الأوزاعي بالعلم منذ نعومة أظفاره كسيرة العلماء الأفذاذ جميعا ؛ حيث حب العلم والتعلم تلازم الطفل مع ولادته وظهوره للحياة ، بدأ الإمام الأوزاعي بالتصنيف والتأليف باكرا ، وكان يفتي ، وله من العمر ١٣ عاما .

اتصف الإمام الأوزاعي بالزهد بالدنيا ، فقد كان له من خلفاء بني أمية وبني العباس نحوا من ٧٠ ألف دينار ، فلم تمسك يده منها بشيء ، وأنفقها كلها على الفقراء والمساكين ، ولم يترك يوم وفاته سوى سبعة دنانير لجهازه .

كان الإمام الأوزاعي متمسكا بسيرة السلف الصالح ، لم يبدل ولم يغير، وكان شديد الدفاع عن السنة في فترة بداية انتشار البدع والجدال والانحراف .

ومن أشهر المؤلفات التي عرفت للإمام الأوزاعي : " مسند الإمام الأوزاعي"، و" السنن في الفقه " ، وكتاب " المسائل في الفقه " ، ولعل أشهر كتب الإمام الذي قدر له البقاء ووصلنا هو كتاب " سير الإمام الأوزاعي " ، وهو مطبوع ضمن كتاب الأم للشافعي .

ثناء العلماء عليه :

لقد وضع الله له القبول في الأرض ، فأثنى عليه الأئمة ، وأجمع المسلمون على عدالته وإمامته . قال الخريبي : كان الأوزاعي أفضل أهل زمانه . وقال إسماعيل بن عيّاش : سمعتُ الناس في سنة أربعين ومأة يقولون: الأوزاعيُّ اليوم عالم الأمة . وقال مالك بن أنس : الأوزاعيُّ إمام يقتدى به . وقال عنه الشافعي : " ما رأيت أحدا أشبه فقهه بحديثه من الإمام الأوزاعي " ، وقال عنه أحمد بن حنبل: " الأوزاعي إمام " ، وقال النسائي : " الأوزاعي إمام أهل الشام وفقيههم " ، وقال الحاكم : " الأوزاعي إمام عصره عموماً وإمام أهل الشام خصوصاً " ، وعن سفيان بن عيينة قال : كان الأوزاعي إمام أهل زمانه . وقال محمد بن سعد :

وكان ثقة مأموناً صدوقاً فاضلاً خيراً ، كثير الحديث والعلم والفقه ، حجة . وقال إسماعيل بن عياش : سمعت الناس في سنة ١٤٠ هـ يقولون : الأوزاعي اليوم عالم الأمة . وعن محمد بن شعيب قال: قلت لأمية بن يزيد: أين الأوزاعي من مكحول ؟ قال : هو عندنا أرفع من مكحول . قال الذهبي : بلا ريب هو أوسع دائرة في العلم من مكحول . وقال الخريبي : كان الأوزاعي أفضل أهل زمانه . وقال يحيى بن معين : " العلماء أربعة : الثوري ، وأبوحنيفة ، ومالك ، والأوزاعي " .

أصول مذهبه ومزاياه :

قد اشتهرت في زمن الأوزاعي مدرسة الحديث التي يتزعمها الإمام مالك في المدينة المنورة ، ومدرسة الرأي التي يرأسها الإمام أبو حنيفة في العراق، ولكن اتخذ الإمام الأوزاعي لنفسه طريقة وخطة أوفت به إلى الغاية التي أرادها فسميت طريقته مذهباً ، كان يجمع بين النظري التأصيلي في مذهبه ، والتطبيق العملي الفعلي ، فأخذ بالفقه والزهد ، وجمع بين العلم الغزير والورع الشديد والعبادة المتواصلة ، ومع اعتراضه الشديد في بداية الأمر على مدرسة الرأي وأهله ، إلا أنه توسم فيها الخير بعد اطلاعه على آراء أبي حنيفة .

وهكذا جمع الإمام الأوزاعي في فهمه وفقهه بين مدرسة الحديث والرأي، وذلك لتلقيه العلم على علماء من مكة والمدينة والعراق وبلاد الشام ، مع ميله إلى الأخذ بالحديث والتقليل من القياس .

وكان للإمام الأوزاعي مذهب مستقل مشهور ، وكان أهل الشام على مذهبه ، وما زالوا على مذهبه إلى المئة الرابعة ، كما كان أهل المغرب (وبالذات الأندلس) على مذهبه قبل أن يدخل عليهم مذهب الإمام مالك ، وكان له مسائل كثيرة حسنة ينفرد بها ، وهي موجودة في الكتب الكبار ، ومن غرائب ما انفرد به الأوزاعي : أن الفخذ ليست في الحمام عورة ، وأنها في المسجد عورة .

مذهب الليث بن سعد :

هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن بن عقبة الفهمي أبو الحارث الإمام الفقيه الحافظ الحجة ، شيخ الإسلام في مصر ، ولد في محافظة القليوبية بدلتا مصر سنة ٩٤هـ ، وتوفي في شهر شعبان سنة ١٧٥ هـ للهجرة، تلقى الليث العلم عن كبار شيوخه في مصر ، ومن غير المصريين أمثال نافع المدني ، وعطاء بن أبي رباح وابن شهاب الزهري وغيرهم .

وكان زاهداً في الإمارة والولاية ، قال يحيى بن بكير : قال الليث: قال لي المنصور : تلي مصر ؛ فاستعفيت قال : أما إذ أبيت فدلني على رجل أقلده مصر، قلت : عثمان ابن الحكم الجذامي رجل له صلاح وله عشيرة ، قال : فبلغ عثمان ذلك فعاهد الله ألا يكلم الليث ، وذلك لشدة كرههم للولاية والإمارة واعتبارها مسؤولية وتكليف .

شهادة العلماء فيه وبمكانته :

شهد الكثير من كبار العلماء والفقهاء للإمام الليث بن سعد رحمه الله

بنبوغه وكثرة علمه وفقهه ، فقال الإمام الشافعي : " الليث أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به " . وقال فيه أيضا : " الليث أتبع للأثر من مالك " . وكان يتأسف لعدم لقياه والأخذ عنه ، قال : " ما اشتد علي فوت أحد من العلماء مثل فوت ابن أبي ذئب ، والليث بن سعد .

وقال أحمد بن سعد الزهري: سمعت أحمد بن حنبل يقول: الليث ثقة ثبت .

وقال أبو داود: سمعت أحمد يقول : ليس في المصريين أصح حديثا من الليث بن سعد ، وعمرو بن الحارث يقاربه .

قال الحافظ أبو نعيم : " كان الليث فقيه مصر ومحدثها ومحتشمها ورئيسها ومن يفتخر بوجوده الإقليم ، بحيث إن متولي مصر وقاضيها وناظرها من تحت أوامره ويرجعون إلي رأيه ومشورته " .

وقال أبو صالح : " كان الليث يقرأ بالعراق من فوق على أصحاب الحديث والكتاب بيدي فإذا فرغ رميت به إليهم فنسخوه " .

وقال ابن سعد : " كان الليث قد استقل بالفتوى في زمانه " . وقال ابن وهب : " لولا مالك والليث لضل الناس " ، وكان ابن وهب تُقرأ عليه مسائل الليث ، فمرّت به مسألة فقال رجل من الغرباء : أحسن والله الليث، كأنه كان يسمع مالكا يجيب فيجيب هو ، فقال ابن وهب للرجل : بل كأن مالك يسمع الليث يجيب فيجيب هو ، والله الذي لا إله إلا هو ما رأينا أحدًا قط أفقه من الليث .

وروى عبد الملك بن شعيب عن أبيه قال : قيل لليث : " أمتع الله بك إنا نسمع منك الحديث ليس في كتبك " ، فقال : " أو كل ما في صدري في كتبي لو كتبت ما في صدري ما وسعه هذا المركب " .

مدرسته الفقهية :

كان الليث محدثا وفقيها ، وهذا ما يجعل من مدرسته الفقهية فريدة من نوعها ، فهو متمسك بالحديث بحيث يمكن اعتباره من مدرسة أهل الحديث ، إضافة إلى اجتهاده ببعض المسائل التي ليس فيها نص من كتاب أو سنة أو إجماع ، مما يمكن اعتباره أخذا من مدرسة الرأي أيضا .

وتظهر أصول مدرسته في أجوبته على سؤال الناس له فيما يعرض لهم من أمور الحياة ، فقد كان يجيب مستوحيا القرآن في فتاواه ، فإن لم يجد لجأ إلى السنة ، فإن لم يجد الإجابة في النصوص ، التمس الجواب في إجماع الصحابة ، وكان من رأيه أن إجماع الصحابة نادر ، فإن لم يجد ، اجتهد رأيه، ولجأ إلى القياس وإلى العادات والعرف ما لم تخالف نصا .

بعض آرائه التي خالف فيها الإمام مالك :

ربطت الصداقة والمحبة في الله بين إمام مصر الليث بن سعد وبين إمام المدينة المنورة مالك بن أنس ، ومع ذلك فقد اختلفوا في الكثير من المسائل الفقهية ، وقد كان الخلاف بينهما مثالا للحرص على الحقيقة وشجاعة العالم في مواجهة الخطأ ، وقدرته على الرجوع إلى الحق ، قال الليث: أحصيت على مالك سبعين مسألة قال فيها

برأيه وكلها مخالفة لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومن هذه المسائل :

١- أن الجنين يستقر في بطن أمه ثلاث سنوات ، وهذا مخالف للعقل والعلم والطب ، وليس في الشرع ما يخالف العقل ، ورأى أن رأي مالك هذا يفتح باب الفساد للنساء اللاتي يغيب عنهن الزوج بالطلاق أو الوفاة أو السفر أو لأي سبب آخر ، وتقبل مالك نقد الليث ولم يعد يفتي بهذا .

2- القضاء بشهادة شاهد ويمين صاحب الحق ، وهو الذي كان يقضي به مالك في المدينة المنورة ، وقد اعتبره الليث مخالفا لفعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وسلم حيث لم يقض به أحد منهم ، كما أنه مخالف لفعل عمر بن عبد العزيز ، حيث كتب إليه رزيق بن الحكم : إنك كنت تقضي في المدينة بشهادة الشاهد الواحد ويمين صاحب الحق ، فكتب إليه : إنا كنا نقضي بذلك في المدينة فوجدت أهل الشام على غير ذلك ، فلا تقض إلا بشهادة رجلين عدلين أو رجل وامرأتين.

3- أنكر الليث فتيا الإمام مالك أن الشريكين في المال لا تجب عليهما الزكاة، حتى يكون لكل واحد منهما ما تجب فيه الزكاة ، وفي رأي عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أنه تجب عليهما الزكاة بالسوية ، وبهذا أخذ الليث .

4- خالف الليث مالك في موضوع الكفاءة في الزواج ، فمالك يعتد بالنسب ، فلا يصح زواج القرشي بغير القرشية أو العربي بغير العربية ، أما الليث فالمعول عنده عن الإسلام ، فكل مسلم كفء لكل مسلمة ، والقول بغير ذلك يخالف القرآن { إن أكرمكم عند الله أتقاكم } ويخالف الحديث : (لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى)

5- اختلف الليث مع مالك في قوله بالجمع بين صلاة المغرب وصلاة العشاء في حالة المطر ، كما اختلف معه في صلاة الاستسقاء ، فمالك يقدم الصلاة على الخطبة ، بينما يرأى الليث أنها كالجمعة تتقدم فيها الخطبة والدعاء على الصلاة

6- اختلف الليث مع الإمام مالك في جواز ضرب المتهم بالسرقة للحصول على اعترافه حماية للأموال ، حيث يرى مالك الجواز لتحقق مصلحة عامة وهي أولى بالرعاية من مصلحة المضروب ، بينما تساءل الليث : فإذا ثبت أن المتهم برئ ؟! إن حماية البريء أولى من عقاب المذنب ، ولأن يفلت عشرة مذنبين خير من ظلم برئ واحد ، ثم إن الضرب في ذاته عقوبة لا يقضي بها إلا بعد ثبوت الجريمة ، وإلا فالضارب والآمر بالضرب ومن أفتى بجوازه كلهم مسئولون .

ولا ريب أن أساس كل الخلافات بين الإمام الليث والإمام مالك هو الخلاف بين منهج كل منهما في استنباط الحكم ما لم يكن النص واضحا قطعي الدلالة ، فالإمام مالك يرد الحديث الذي يرويه صحابي واحد ، ويأخذ بعمل أهل المدينة أو بما يستحسنه ويراه محققا للمصلحة .

أما الإمام الليث فيأخذ بالأحاديث التي يرويها الآحاد ، ويقول : إننا لو فتحنا باب

الاستحسان والمصالح فما هي الضوابط ؟ أكلما بدا للمفتي أو القاضي أن رأيا ما أحسن أو أرعى للمصلحة أخذنا به ؟! إذن تتناقض الفتاوى في المسألة الواحدة! فلا عاصم إلا ضبط الأحكام التي لم يرد بها نص قطعي بقبول الحديث الذي يرويه الصحابي الواحد ، مادام هذا الحديث يوافق روح القرآن ، ويوافق روح السنة ، ولا يخالف العقل ، أو يجافي مقاصد الشرع .

لم تكن خلافات مالك والليث في الفقه فحسب ، بل بطريقة الحياة أيضاً ، فقد سمع الإمام مالك بما يصنعه الليث من التمتع بأطيب الطعام ، والتزين بأبهى الثياب ، والخروج للنزهة في الحدائق والأسواق ، فكتب مالك إليه معاتبا : (بلغني أنك تأكل الرقاق وتلبس الرقاق (أي الثياب الرقيقة الفاخرة وتمشي في الأسواق) . فكتب إليه الليث: قال الله تعالى: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) الأعراف : ٣٢ .

مذهب الطبري :

هو العلامة الإمام العالم المجتهد الفقيه المحدث ، صاحب التصانيف البديعة أبو جعفر محمد بن جرير ابن يزيد بن كثير الطبرى ولد فى سنة ٢٢٤ وتوفى فى عام ٣١٠ للهجرة ، أكثر الترحال ، ولقي نبلاء الرجال ، وكان من أفراد الدهر علما ، وذكاء ، قل أن ترى العيون مثله .

وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، فكان حافظاً لكتاب الله ، عارفاً بالقراءات ، بصيراً بالمعاني ، فقيهاً في أحكام القرآن ، عالماً بالسنن وطرقها ،عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ، عالماً بأيام الناس وأخبارهم ، عارفاً بالصرف والنحو والشعر .

أقوال العلماء فيه :

قال عنه الخطيب البغدادي: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب: كان أحد أئمة العلماء ، يُحكم بقوله ، ويُرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله .

وقال أبو سعيد بن يونس: محمد بن جرير من أهل آمل ، كتب بمصر ، ورجع إلى بغداد ، وصنف تصانيف حسنة تدل على سعة علمه .

وقال الخونساري : له مصنفات مليحة في فنون عديدة ، تدل على سعة علمه وغزارة فضله ، وكان من الأئمة المجتهدين .

وقال ابن خزيمة : " ما أعلم تحت أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير " .

ونقل ياقوت الحموي وصفه عن أبي محمد عبد العزيز بن محمد الطبري قال : كان أبو جعفر من الفضل والعلم والذكاء والحفظ ما لا يجهله أحدٌ عرفه، لجمعه من علوم الإسلام ما لم نعلمه اجتمع لأحدٍ من هذه الأمة ، ولا ظهر من كتب المصنفين وانتشر من كتب المؤلفين ما انتشر له .

وقال الذهبي : الإمام العلم الفرد الحافظ أبو جعفر الطبري ، أحد الأعلام، وصاحب التصانيف ، كان ثقة صادقاً حافظاً رأساً في التفسير، إماماً في الفقه

والإجماع والاختلاف ، علامة في التاريخ وأيام الناس ، عارفاً بالقراءات وباللغة وغير ذلك .

وللطبرى مؤلفات قيمة ، منها : جامع البيان عن تأويل آي القرآن في التفسير في ثلاثين مجلداً ، وهو أجل كتب التفسير قاطبة ،أجمع على ذلك العلماء سلفا وخلفا . وتاريخ الأمم والملوك ، ويعد من أهم مصادر التاريخ الإسلامي . وله كتاب: " تاريخ الرجال " من الصحابة والتابعين ، وإلى شيوخه الذين لقيهم ، وتم له كتاب: " لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام " ، وهو مذهبه الذي اختاره ، وجوده ، واحتج له ، وهو ثلاثة وثمانون كتابا ، و له كتاب : " القراءات والتنزيل والعدد " ، و: "الخفيف في أحكام شرائع الإسلام" وهو مختصر لطيف ، و "التبصير"، وهو رسالة إلى أهل طبرستان ، يشرح فيها ما تقلده من أصول الدين ، وابتدأ بتصنيف كتاب : " تهذيب الآثار " وهو من عجائب كتبه ، ابتداء بما أسنده الصديق مما صح عنده سنده ، وتكلم على كل حديث منه بعلله وطرقه ، ثم فقهه ، واختلاف العلماء وحججهم ، وما فيه من المعاني والغريب ، والرد على الملحدين ، فتم منه مسند العشرة وأهل البيت والموالي ، وبعض مسند ابن عباس ، فمات قبل تمامه .

وله أيضا كتاب " اختلاف الفقهاء " ، وهو يعرض فيه صوراً من اختلافات الفقهاء واحتجاج كل لرأيه ، ويبين أقوال كثير من الفقهاء الذين بادت مذاهبهم ، فلم يبق منها إلا ما جاء فى كتب الخلافات ، وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة واختيار من أقاويل الفقهاء وتفرد بمسائل حفظت عنه .

منهج الطبري :

أتقن الطبري - رحمه الله تعالى - المذاهب الفقهية جميعها ، وليس فقط مذهب الشافعي كما يعدونه شافعيا ويذكرونه في كتب طبقات الشافعية ، لكنه لم يحصر همته في مذهب معين ، بل وصل إلى رتبة الاجتهاد فهوغير متقيد بمذهب معين ، وقد تفقه أكثر شيء على فقه الشافعي ، لكنه مجتهد لا يحصره مذهب معين ، وشيوخه في الفقه لا يحصرون ، فقد درس المذهب الشافعي والحنفي والظاهري والمالكي من مذاهب الفقهاء والأئمة وبعض الذين اندثرت مذاهبهم كذلك كان رحمه الله تعالى .

أمعن الطبري في التثقيف والتدقيق ، وأحصى المسائل واستجلى الغوامض، ولم يلبث أن أدى به البحث والاجتهاد إلى مذهب انفرد به وأودعه في كتبه المطولة والمختصرة .

إذا: تطور أمره إلى أن صار له مذهب مستقل ، فهو مجتهد يأخذ ما أدى إليه اجتهاده ، وله أصوله وقناعاته في أصول الفقه التي أقام عليها هذا المذهب ، انتشر مذهبه فى بغداد ، وظل معروفا حتى منتصف القرن الخامس الهجرى .

دراسات وأبحاث

فصول جزيرة العرب وأمطارها

بقلم : العلامة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي
تعريب : محمد فرمان الندوي

قلة الماء في جزيرة العرب :

تقع جزيرة العرب في منطقة حارّة ، وهي أرض قفر باستثناء بعض مناطق نجد ، وجبال عمان وعسير واليمن ، فإن معول الحياة في صحارى جزيرة العرب والميادين الجافة أودية تمرّ بها أو ينابيع أو أرض ذات نخل ، يصل بها مقدار قليل من الماء إلى جزيرة العرب ، فتتوافر إمكانيات الزراعة .

يقل الماء في أكثر مناطق جزيرة العرب ، فيضطر سكان بعض مناطقها إلى ادخار ماء المطر لينتفعوا به طول السنة ، ويكون هذا الماء كدراً ، وفاسداً بمرور الزمن .

إن جزيرة العرب محاطة بالجبال الشاهقة من جهات شتى ، وهي تمنع السحب الفصلية من الدخول إلى جزيرة العرب ، فتتطاير سحب من الشمال لقلة الحواجز ، وتكون سبباً لنزول المطر على المناطق الشمالية والوسطية وخاصة على جبالها ، وبما أن أرض جزيرة العرب حجرية أو صحراوية ، وينجذب الماء قليلاً فيها ، فيسيل إلى أرض منخفضة بعد المطر ، أو ينجذب قليل منه ، فيجتمع في صورة بئر أو ينبوع ، ويُنتفع به ، وليس هناك منبع للماء من نصف جنوب بادية الشام إلى حضرموت ، فيكون فصل البلاد جافاً وحاراً ، ولا تمطر السماء في صحراء الربع الخالي عامة ، وفي المناطق الأخرى خاصة أحياناً إلى سنوات عديدة ، وإن السنوات التي تكون خالية من المطر تعرف باللغة العربية بالشهباء والسنة ، وتعتبر أجدب السنوات ، قال الله تعالى : وَلَقَدْ أَخَذْنَآ آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (الأعراف : ١٣٠) فآبارها تجف ، وكان العرب ينتقلون من مكان إلى مكان آخر باحثين عن الماء والأرض الخصبة ، فكانت حياة العرب القبلية واللصوصية نتيجة لهذه البيئات والأوضاع ، فجاء الإسلام وغيّرها من قوتها الخارقة وتأثيره العظيم، وظل أثر قلة المياه على عمرانها ، فكانت نسبة سكانها قليلة

بالنظر إلى سعة البلاد ، وكلما ازداد عدد سكانها هاجروا إلى بلدان أخرى من قلة الإنتاج وضآلة مرافق الحياة ، فلم يكن العرب محدودين في جزيرتهم ، بل انتشروا في بلدان شمال جزيرة العرب وفي النصف الشمالي من قارة إفريقيا عامة ، وفي البلدان المجاورة خاصة ، وكان العرب الأولون دعاة الإسلام فانتشروا في المناطق المتعددة ، وكان نشر الإسلام أيضاً سبباً كبيراً في هجرتهم إلى بلدان أخرى رغم جفاف جزيرة العرب .

فصول جزيرة العرب :

تتقسم السنة في شمال جزيرة العرب في أربعة فصول : الشتاء (من ٢٢ / دسمبر) والربيع (من ٢٢ / مارس) والصيف (من ٢٢ / يونيو) والخريف (من ٢٢ / سبتمبر) وينزل المطر عامة في الشتاء ، وتشتد الحرارة في يوليو ، وأغسطس ، فالشهر الفصلي (السنبلة) الذي يقع في أغسطس وسبتمبر يُعتبر نموذجاً للحرارة الشديدة .

وإن شهور العرب الفصلية التي تُعرف بأسماء البروج السماوية هي كما يأتي حسب الفصول : الجدي والدلو والحوت في الشتاء ، والحمل والثور والجوزاء في الربيع ، والسرطان والسد والسنبلة في الصيف ، والميزان والعقرب والقوس في الخريف .

يعبِّر العرب عن البرج الأول من كل فصل بالمنقلب ، لأن الفصل يتغير منه ، وآخر الأبراج من كل فصل تعرف بذات الجسدين ، وهم يستعملون للصيف كلمة القيظ أيضاً ، ولموسم الخريف كلمة الربيع حيناً .

يفتتح العرب السنة من فصل الشتاء ، والليل والنهار بالليل ، فقد أشار القرآن الكريم إليه ، قال الله تعالى : وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً . وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً (النبأ : ١٠ – ١١) وقال : وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ (الإسراء : ١٢) وقال : وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى . وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (الليل : ١ – ٢) .

وقد انقسمت السنة عند أهل الحجاز في ستة فصول ، أسماؤها كما يأتي : الوسمي ، الولي ، الشتي ، الوفي ، الصيف ، الحميم ، الرمضي ، الخريفي .

وقد قسم العرب السماء في ٢٨/ منزلاً ، يدور فيها القمر ، ويغطي برج واحد مساحة منزلين وربع منزل . وبما أن مطلع ومغرب الشمس يتعددان باختلاف فصول الصيف والشتاء ، فتعددت مشارقها ومغاربها ، قال الله تعالى : رَبُّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ (المعارج : ٤٠) .

ويوضّح العرب فرق الفصول بالنجوم أيضاً ، فيستعينون بعلم النجوم في تعيين الفصول ومعرفة الطرق وجهاتها ، وكانوا مطلعين عليه عملياً ، مثلا الجوزاء ، الذي هو آخر البروج في الربيع ، ويطلع في آخر مايو وبداية يونيو ، والثريا الذي يطلع في بداية يونيو ، يذكره شاعر الحماسة :

إذا شالت الجوزاء والنجم طالع
فكل مفازات الفرات معابر

إن كل كوكب يعرف باللغة العربية بالنجم ، لكن الثريا عرف بالنجم بأهميته .

وإن جهة بنات النعش تكون إلى الشمال ، وجهة سُهيل إلى الجنوب ، فيقول شاعر الحماسة وهو يخاطب حبيبته :

ذريني ما أممت بنات نعشٍ
من الطيف الذي ينتاب ليلا
ولكن إن أردت فهيجينا
إذا رمقت بأعينها سهيلا

تشتد الحرارة عامة في جزيرة العرب ، وتتفاوت درجاتها باختلاف الليل والنهار والشتاء والصيف ، ذلك لأن فصول هذه المنطقة جافة وغير رطبة بفقدان الغيث والماء ، وإن الأرض والفضاء في فصول غير رطبة يكونان حارين وباردين ، فتزداد درجة الحرارة في جميع مناطق جزيرة العرب ، وتشتد حرارة الشمس في وسطها ، وإن انخفاض درجات الحرارة يكون في أمكنة يرتفع فيها سطح الأرض ، أو تكون فيها نسبة المطر كثيراً ، ومن المناطق التي تكون أشد حرارة سواحلها الشرقية ، وسواحل البحر الأحمر ، وخليج عدن والربع الخالي ، ومن المناطق التي تكون أقل حرارة عمان ، وعسير ، وأمكنة جبلية في عسير واليمن ، مناطق مرتفعة من نجد والحجاز الشمالي والجنوبي ، هذه الأمكنة أقل حرارة بارتفاعها .

إن درجة الحرارة في الصيف في المناطق الحارة C/٣٥ ، أي لا ينخفض من درجة ٩٨ ، وأحياناً ترتفع فتتصاعد C/٥٠ ، فلا تكون مبعث أذى بالغ ، لأن الريح التي تهب على سواحل البحر والتهامات تكون رطبة ، هذا ما أشارت إليه الكتب الأدبية القديمة ، يقول بديع الزمان الهمذاني في مقاماته ، وهو يضرب المثل : ليل كليل تهامة لا حر ولا برد ولا سآمة .

تنخفض نسبة الحرارة بالأمطار التي تنزل في تهامات اليمن وحضرموت وعمان وغيرها ، فتهب رياح باردة من الشمال في شمال ووسط جزيرة العرب ، فيكون الشتاء شديداً في هذه المناطق ، وتكون حياة هذه الفترة شديدة ، وإمكانيات الاقتصاد محدودة ، فاعتبر الجود والسخاء في هذه الفترة أولى وأهم من الفترات الأخرى ، ويتناول الشعراء موضوع الجود والسخاء في هذه الفترة كثيراً ، يقول شاعر في مدح أصدقاء له :

والمطعمون غذا هبت شآمية
وباكر الحي من صرادها صرم
وشتوة فللوا أنياب لزبتها
عنهم إذ كلحت أنيابها الأزم
حتى انجلى حدها عنهم وجارهم
بنجوة من حذار الشر معتصم

وقال الفرزدق أشهر الشعراء في العهد الأموي :

إذا اغبرَّ آفاق السماء وكشفت
بيوتاً وراء الحي نكباء حرجف
وأصبح مبيض الصقيع كأنه
على سروات النيب قطن مندف
ترى جارنا فينا بخير وإن جنى
فلا هو مما ينطف الجار ينطف

وتكون مياه البرك والحفر في هذا الفصل صافيةً ونظيفةً ، ويتلذذ بكثرة برودته ، فيظن العرب ماء الشتاء رائقاً ولذيذاً ، ويضربون المثل بصفائه ولذته ، وقال شاعر :

فما نطفة من ماء مزن تقاذفت
به جنبتا الجودي ، والليل دامس
فلما أقرته الصاب تنفست
شمال لأعلى مائه وهو قارس
بأطيب من فيها وما ذقت طعمه
ولكنني فيما ترى العين فارس

إن من أسباب ازدياد الشتاء في شمال ووسط جزيرة العرب رياحاً باردة تهب من الشمال ، وفي جنوبها ارتفاع هذه المناطق ، وشتاء جافاً في

المناطق المنخفضة ، نظراً إلى هذين السببين تشتد البرودة في موسم الشتاء، وتنخفض نسبة الحرارة في هذا الموسم أقل من ٨٠ / ، وتبلغ في بعض المناطق أحياناً إلى درجة الصفر .

كما أن هناك تبايناً في الفصلين الشتاء والصيف في فصول جزيرة العرب ، كذلك يختلف موسم الليل والنهار في فصل الصيف ، يكون النهار شديداً في الأمكنة الصحراوية خاصة ، ويكون الليل بارداً وقارساً ، وإن الريح الشرقية في شمال ووسط جزيرة العرب تعرف بريح الصبا ، وتكون معتدلة وبهيجة ، والريح الشمالية تكون قارسة بصفة خاصة في فصل الشتاء ، وبالعكس أن الريح الجنوبية تكون حارة ومسمومة ، وإذا بلغت الريح إلى غاية الشدة تعرف بالسموم ، ويهب اللفح والسموم من الصحراء ، ويكونان مسمومتين ومهلكتين ، وإن الضغط والاضطراب الموسمي في فصل الصيف في البحر المتوسط يدفع رياح جزيرة العرب ، فتهب رياح الصحراء الحارة إلى جهة الشمال ، وهي تكون لفحاً ، وتعرف بالدبور ، لأنها تخالف الريح الباردة من الشمال ، كان العرب يتعوذون منها ، وتنسب إلى مناسبات مكروهة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور . وقد مر ذكر إضرار السموم ضمن الربع الخالي .

أمطار جزيرة العرب :

تحمل الأمطار أهمية كبيرة لدى العرب ، فهم ينتظرونه بشوق بالغ ، ويرحبونه بسرور كبير ، ويذكرونه بأسلوب شيق ، توجد في الأدب العربي أسماء مختلفة لأنواع الأمطار ، الوسمي أول المطر ، والولي الذي يليه ، والمطر مبعث حياة العرب ، فمن لأسمائه الغيث ، والحياة ، إن الأودية تزخر بنزول المطر وتسقي المناطق المجاورة ، والعرب يحتفظون بالماء الذي يكون في الحفر من المناطق الجبلية الجافة ، ويستعملونه بكل حيطة ، وتوجد أسماء لهذه الحفر باللغة العربية حسب مقادير الماء ، والشعرالعربي حافل بهذه الأسماء .

إن هناك نظامين للمطر في البلدان العربية مثل المناطق الأخرى في العالم : فصل الشتاء وفصل الصيف .

مطر الشتاء :

ينزل المطر كثيراً في هذا الفصل في شمال ووسط جزيرة العرب ،

ومن نظامه أن سحب البحر المتوسط في فصل الشتاء تأتي إلى خط السرطان في جزيرة العرب وتمطر مطراً ، وتقع فيها مناطق نجد والحجاز، ولا يكون مقدار المطر كثيراً ، هذا من ٨٠ إلى ٢٠٠ / م – ل . وينزل المطر في المناطق المنخفضة أو على السواحل مثل الأحساء وتهامة والحجاز قليلاً ، ويكثر المطر في المناطق المرتفعة مثل نجد وشمال الحجاز، وتقدر نسبة نزول المطر في جدة ٨٠ / م – ل .

إن شدة المطر التي تستمر في صحراء جزيرة العرب إلى شهر أكتوبر تجرُّ سحب البحر المتوسط ، فتبتدئ سلسلة المطر من بعد أكتوبر إلى أبريل ، وهذا المطر يكون قليلاً حسب المقدار ، فتكون المناطق محرومة من المطر في بعض السنوات ، وإذا لم ينزل المطر في سنة عرفت بالسنة الشهباء أو السنة .

الربع الخالي يأتي في مناطق مطر الشتاء ، لأن في جنوبه وغربه جبالاً ، تمنع السحب الفصلية من الصيف ، إن السحب الشمالية تصل إلى الربع الخالي بمقدار ضئيل ، فتمر سنوات ، ولا تمطر السماء ، لكن تمطر السماء في صحراء النفوذ كل عام ، وإذا نزل المطر في هذه الصحاري نبتت الحشائش الشيطانية بمقدار قليل من الماء ، وتخضر فيها الأرض ، وتكون هذه الخصبة نعمة كبيرة للأعراب ، فيستفيد منها سكانها والذين يجاورون هذه المناطق ، وإن آثار المطر لا تبقى أكثر من ثلاثة أو أربعة شهور ، ثم تنتقل هذه القبائل إلى أمكنة أخرى ، فيهجرون هذه المناطق .

وكثيراً ما يتأثر بمطر الشتاء مناطق نجد ، فهناك جبال مرتفعة ، تجعل مناطق عديدة مخصبة وخضراء ، منها جبال أجا وسلمى ، وهي جبال تقع في منطقة شمر ، والجدير بالذكر فيها جبل طويق وهو جبل العارض، الذي يقع في شمال اليمامة ، وينزل المطر أيضاً في عمان في هذا الفصل ، وتأتي سحبه من الخليج العربي .

مطر الصيف :

ونظام آخر للمطر وهو مطر الصيف ، وهذا المطر تابع لرياح فصلية تأتي من جنوب العرب ، يقع فيه عسير واليمن وحضرموت وظفار ، ويقل هذا المطر في بلاد عسير بسببين مهمين : إما لبعده من جهة الرياح أو لعدم جبال مرتفعة في حضرموت ، لكن ينزل في اليمن كثيراً ، لأن

الرياح الفصلية تهب عليها مباشرة ، وتوجد في اليمن جبال مرتفعة ، وهذه السحب ترتفع من بحار الجنوب ، وفصل المطرهنا نفس الفصل في الهند الشمالية ، فينزل فيه المطر كما ينزل المطر في الهند الشمالية ، وهو أصل المطر في هذا الفصل ، يستمر من يونيو إلى أكتوبر ، وينزل المطر قليلاً بعد الشتاء وفي بداية الصيف في هذه المنطقة ، وإن مقدار مطر اليمن حوالي =/٥٠٠ سنوياً ، ويبلغ هذا المقدار أحياناً إلى ١٠٠٠/ متر ، وتمتلئ الأودية بنزول المطر ، لكن لا يستقر الماء في هذه الأودية بجفاف هذه الأرض وصحراويتها ، بل ينتقل بسرعة إلى البحر أو الصحراء ، وقد أقيم سد في مدينة مأرب في عهد سبأ (العهد المتطور لهذه المنطقة) يمسك منه الماء ويستعمل طول السنة ، لكن تهدم هذا السد بعصيان الله تعالى والفساد في الأرض ، وانتشر الدمار في كل مكان ، وسيأتي ذكر ذلك ضمن قوم سبأ .

المطر عند العرب :

يحمل المطر أهمية كبيرة في حياة العرب خاصةً في مناطقها الشمالية ، فكانوا ينتظرونه بشوق بالغ ، لأنه كان معول حياتهم ، توجد في أدبهم أسماء كثيرة حسب مقدار المطر ومدته ، مثل الرذاذ للرشاش القليل ، والطش للرشاش الكثير ، والطل للمطر القليل ، والوابل للمطر الغزير ، والديمة للمطر المتواصل ، قال الله تعالى : وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (البقرة : ٢٦٥)

وقال شاعر :

هجان الحي كالذهب المصفى
صبيحة ديمة يجنيه جان

والوسمي لأول مطر الفصل ، قال امرؤ القيس :

وقد أغتدي والطير في وكناتها
لفيث من الوسمي رائده خالي

والولي لآخر مطر الفصل ، قال طرفة بن العبد :

حدائق مولي الأسرّة أغيد

والأمكنة التي يجتمع فيه ماء المطر وينجذب فيها توجد لها أسماء

عربية : مثل : الغدير : البركة التي اجتمع فيه الماء مروراً بها ، والروضة : الموضع الذي كان مسطحاً ، فاجتمع الماء وانجذب فيه ، ونبتت فيه أزهار ونباتات ، والقاع : الموضع الذي يجتمع فيه الماء أحياناً ، والحسي : الأرض التي يكون داخلها صلباً ، ولا تجذب الماء جذباً بل يذهب الماء إلى قعرها ، فإذا حفرت قليلاً خرج فيها الماء ، والحسي جمعه الأحساء ، وهو موضع في الساحل الشرقي من جزيرة العرب ، يستعمل العرب أسماء مختلفة لبرك الماء ، مثل القرارة : حفرة الجبال التي يجتمع فيها الماء ، قال شاعر :

جادت عليه كل بكر حرة
فتركن كل قرارة كالدرهم

والوشل : الحفرة التي تكون على الجبال أو صخرة صلبة ، ويترشح منها الماء ، قال شاعر الحماسة :

اقرأ على الوشل السلام وقل له
كل المشارب مذ هجرت ذميم

الثمد : الحفرة التي يكون فيها ماء قليل ، ويجف بحرارة الشمس ، جاء في الحديث النبوي في قصة صلح الحديبية : حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء ، يتبرضه الناس تبرضاً .

والعرب يفرحون ويبتهجون أشد الابتهاج بنزول المطر ويتجلى هذا الفرح والابتهاج من شعرهم ، وإن تضاريس بلدانهم تدل على أن ابتهاجهم بالمطر فطري ، قال شاعر :

فلما نزلنا منزلاً طلّه الندى
أنيقاً وبستاناً من النور حالياً
أجدّ لنا طيب المكان وحسنه
منى فتمنينا فكنت الأمانيا

وقال آخر :

ألا يا حبذا نفحات نجد
وريّا روضه بعد القطار

إسهامات علماء الأندلس في خدمة التاريخ والتراجم
ابن الخطيب وكتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة» نموذجاً

(الحلقة الثانية)

محمد سيف الإسلام بوفلاقة (كلية الآداب ، جامعة عنابة ، الجزائر)

وقد قص علينا ابن الخطيب تفاصيل هذه المحنة في كتاب (الإحاطة) بقوله: (وتُقبض علي ، ونكث ما أبرم من أماني ، واعتقلت بحال ترفيه ، وبعد أن كبست المنازل ، والدور ، واستكثر من الحرس وختم على الأعلاق ، وأبرد إلى ما نأى ، فاستؤصلت نعمة لم تكن بالأندلس من ذوات النظائر، ولا ربات الأمثال ، في تبحر الغلة ، وفراهة الحيوان ، وغبطة العقار ، ونظافة الآلات ، ورفعة الثياب ، واستجادة العدة ، ووفور الكتب، إلى الآنية والفرش والماعون ، والزجاج والطيب ، والذخيرة ، والمضارب والأقمشة ، واكتسحت السائمة ، وثيران الحرث ، وظهر الحمولة ، وقوام الفلاحة ، وأذواد الخيل ، فأخذ الجميع البيع ، وتناهبتها الأسواق ، وصاحبها البخس ، ورزأتها الخونة ، وشمل الخاصة، والأقارب الطلب ، واستخلصت القرى ، والجنات ، وأعملت الحيل ، ودست الإخافة، وطوقت الذنوب ، وأمد الله بالصبر ، وأنزل السكين، وانصرف اللسان إلى ذكر الله تعالى ، وتعلقت الآمال به ، وطبقت نكبة مُصحفية مطلوبها الذات ، وسبب إفاتتها المال ، حسبما قلت ، عند إقالة العثرة ، والخلاص من الهفوة) [1] .

بيد أن نكبة ابن الخطيب لم تطل ، فقد أرسل ملك المغرب السلطان أبو سالم سفيره (الشريف أبا القاسم التلمساني) إلى ملك غرناطة الجديد ، وطلب منه السماح للملك المخلوع (الغني بالله) ووزيره ابن الخطيب بمغادرة الأندلس ، والمجيء إلى المغرب ، فاستجاب سلطان غرناطة لطلبه ، وذلك رغبة منه في الإبقاء على أواصر الود مع بني مرين ، والحفاظ على صداقتهم ، للاستعانة بهم لضمان مستقبل الدولة الإسلامية التي كانت تتعرض بين الفينة،

[1] عمر فروخ : المرجع السابق ، ج ٦ ، ص : ٥٠٥ .

والأخرى لهجمات النصارى [1] ، فتم إطلاق سراح ابن الخطيب مع نفر كبير من الحاشية ، والتحقوا بالسلطان الذي كان بوادي آش ، ومن ثم وصلوا إلى المغرب الأقصى ، وحلوا بمدينة فاس في محرم : ٧٦١هـ (ديسمبر ١٣٥٨م) ، وقد استقبلهما السلطان أبو سالم استقبالاً حاراً ، وأقام على شرفهم حفلاً عظيماً ، وبهذه المناسبة ألقى ابن الخطيب قصيدة أصبحت من أروع قصائده ، دعاه فيها إلى نصرة سلطانه [2] ، يقول في مطلعها :

سَلاَ هَلْ لَدَيْهَا مِن مُخَبَّرَةٍ ذِكْرُ وهَلْ أَعْشَبَ الوَادِي ونَمَّ بِهِ الزَّهْرُ

وقد شهد ابن خلدون ذلك الحفل بصفته من كبار رجال البلاط المريني، وتحدث عن ابن الخطيب فقال : (إن ابن الخطيب استولى على سامعيه، فأبكاهم تأثراً ، وأسفاً) .

ووصف ابن الخطيب ذلك الحفل بأن القوم كانوا يرتجفون تأثراً، وتسيل منهم العبرات .

وقد طاب العيش لابن الخطيب بالمغرب الأقصى ، وحظي بعناية فائقة من قبل السلطان أبي سالم ، وفي هذه الفترة توثقت الصداقة بينه ، وبين ابن خلدون (وقد كان كل منهما يسمع عن صاحبه ، ويتوق إلى لقائه ، حتى جمعت بينهما الحوادث ، فقد كان كلاهما أستاذ عصره ، وقطره في التفكير ، والكتابة ، وكان كلاهما وزيراً مستبداً ، ومستشاراً لأمراء عصره .

والواقع أن ابن الخطيب قد وجد الحفاوة ، والاحترام أينما حل بالمغرب من السلطان ووزرائه ، ومن الشعب ، وشخصياته ، فأنزله السلطان أبو سالم في قصر من قصوره محفوفاً بالعناية ، والتعظيم ، ثم طلب ابن الخطيب الإذن من أبي سالم في الاستقرار بمدينة (سلا) ليخلو إلى العبادة ، والتأليف ، وملاقاة العلماء ، والصالحين ، والزهاد ، فأسعف قصده ، ولبى طلبه ، وقصد ابن الخطيب مع أهله (سلا) ، واستقر بها مدة ، ثم استأذن السلطان المريني أبا سالم في التجول في جهات مراكش، وزيارة معالمها الأثرية ، والتبرك بقبور الصالحين بها ، فأذن له بذلك ، وكتب إلى ولاته باستقباله ، وإكرامه

---

[1] إحسان عباس : الكتبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة للسان الدين بن الخطيب ، المقدمة ، ص : ٨ وما بعدها .

[2] ينظر : محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي : المرجع السابق ، بحث خاص عن ابن الخطيب في المغرب ، ص : ٢٣٢ - ٢٤٨ .

، وتحقيق رغائبه[1] ، وكان من نتائج هذه الرحلة الشائقة أن أخرج لنا ابن الخطيب كتابه (نفاضة الجراب في علالة الاغتراب) واصفاً فيه هذه الرحلة أجمل وصف ، وأدقه ، فقد ذكر فيه من لقيه من العلماء ، والأدباء ، والولاة، والكبراء ، والشخصيات مع وصف الإقليم جغرافياً ، واقتصادياً وكرم سكانه ، وعاداتهم)[2] .

وفي هذه الفترة توفيت زوجة ابن الخطيب في السادس من ذي القعدة من عام : ٧٦٢هـ ، حينما كان مقيماً بمدينة (سلا) ، وقد تألم ألماً شديداً لوفاتها[3] ، وقال عن هذا الرزء الفادح الذي حل به ، وهو في المنفى : (وفي السادس لذي القعدة من عام اثنين وستين وسبعمائة طرقني ما كدر شربي ، ونغص عيشي من وفاة أم الولد عن أصاغر زغب الحواصل بين ذكران ، وإناث في بلد الغربة ، وتحت سرادق الحشمة ، ودون أذيال النكبة ، فجلت عليها حسرتي ، واشتد جزعي ، وأشفيت لعظم حزني ، إذ كانت واحدة نساء زمانها جزالة ، وصبراً ، ومكارم أخلاق ، حازت بذلك مزية الشهرة ، حيث حلت من القطرين، فدفنتها بالبستان المتصل بالدار بمدينة (سلا) ، ووقفت على قبرها الحبس المغل لمتولي القراءة دائماً عليها ، وصدر عني مما كتبت على ضريحها، وقد أغرى به التنويه والاحتفال :

رَوْعَ بَالِـــي وَهَـــاجَ بلـبَالِي ... وَسَامَنِي الثَّكَلُ بَعدَ إقبَالِ
ذَخِيـــرَتِي حِينَ خَانَنِي زَمَنِي ... وَعُدَتِي فِي اشتِـــدَادِ أهوَالِ
أمَا وقَد غَابَ فِي تُرَابِ سَلاَ ... وجهُكِ عَنِّي فسَلتُ بالسالِي
فائتظِـرِينِي فالشوقُ يُقلِقُنِي ... ويَقتَضِي سُرعَتِي وإعجَالِي)[4]

وعلى الرغم من المحن التي تعرض لها ابن الخطيب في هذه الفترة ، فإنه لم يتوقف عن الإنتاج ، والتأليف ، ومن أهم المؤلفات التي كتبها في تلك الفترة :

١- معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار .
٢- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب .
٣- اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية .

---

[1] محمد الشريف قاهر : المرجع السابق ، ص : ٦٠ وما بعدها .
[2] عبد المجيد التركي : مقدمة كتاب : مثلى الطريقة في ذم الوثيقة ، للسان الدين بن الخطيب ، ص : ١٤ .
[3] ابن الخطيب: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، تحقيق : د . أحمد مختار العبادي، ج : ٠٢ ، ص : ٢٠٥ .
[4] محمد الشريف قاهر: المرجع السابق ، ص : ٦٠ وما بعدها .

٤- الحلل المرقوقة في اللمع المنظومة .
٥- رقم الحلل في نظم الدول .
٦- كناسة الدكان بعد انتقال السكان .
٧- رسائل في فنون مختلفة ، معظمها نظمه شعراً .

وفي هذه الأثناء وقعت ثورة في فاس فقد فيه السلطان أبو سالم عرشه في التاسع عشر من ذي القعدة ٧٦٢هـ (١٣٦١م) [1] ، واستولى على الحكم مدبر الانقلاب الوزير عمر بن عبد الله حيث أعان ابن الأحمر المخلوع على أمره ، وساعده في استرجاع عرشه حينما اندلعت ثورة جديدة في غرناطة صرع فيها السلطان إسماعيل ابن الأحمر على يد الرئيس أبي سعيد ، وقد ساعده الوزير عمر بن عبد الله بمنحه مدينة (رندة) التي كانت تابعة لأملاك بني مرين ، واتخذها مركزاً له لتدبير خططه ، وبعد فترة غزا ثغر (مالقة) ، واستولى على غرناطة ، وتربع على العرش من جديد في جمادى الآخرة عام : ٧٦٣هـ (١٣٦١م) [2] .

وبعد فترة قليلة كتب رسالة إلى الوزير المنفي لسان الدين بن الخطيب بتاريخ: ١٤جمادى الآخرة يدعوه فيها إلى تقلد منصبه السابق ، وقد أثنى فيها عليه أيما ثناء ، ومما جاء فيها قوله : (الفقيه الوزير الجليل الصدر الأوحد ، المشير ، العالم العلم الكبير الرفيع الشهير . . إمام البلغاء ، وصدر الخطباء ، وعلم العلماء ، وكبير الرؤساء . .) ، فاستجاب ابن الخطيب ، وعاد رفقة أسرته ، وصحبه ، ففي الثامن من شهر رمضان أصدر السلطان قراراً بإعادته إلى منصبه ، وفي هذه المرحلة تغيرت الأوضاع ، ووجد من يدبر له المكائد ، ويزاحمه منصبه ، وينافسه على السلطة وهو شيخ الغزاة (عثمان بن أبي يحيى) الذي كان له الفضل الكبير في استرجاع السلطان للعرش ، وقد نشب بينهما خلاف ، وتمكن ابن الخطيب من التغلب عليه ، وأخاف الملك من غدره ، ومكائد أشياعه، فاستجاب السلطان لنصائحه ، وقضى عليه في شهر رمضان: ٧٦٤هـ (١٣٦٣م) .

وما كاد ابن الخطيب يتخلص من مكائد عثمان ، حتى شعر بما يحيط به من دسائس ، ومكائد ، وفي هذه المرة أحس أن السلطان يستجيب

---

[1] حمدان حجاجي : حياة وآثار ابن زمرك ، شاعر الحمراء ، ص : ١٠ .
[2] محمد رضوان الداية : الأدب الأندلسي والمغربي - أبحاث في الأدب الأندلسي والمغربي - ، ص : ٢٥٧ .

لخصومه [1] ، وقد تزعم الحملة ضده هذه المرة كل من :
الشاعر محمد بن يوسف المعروف بـ (ابن زمرك) ، وهو تلميذ ابن الخطيب، ومعاونه في الوزارة .

و قاضي الجماعة أبو الحسن علي بن عبد الله النباهي ، ولي نعمة ابن الخطيب .

وبعد أن خشي ابن الخطيب من دسائس الرجلين قرر مغادرة الأندلس نهائياً، فوصل إلى سبتة ، والتحق بتلمسان ، واستقبله فيها السلطان عبد العزيز بحفاوة كبيرة ، وأكرمه ، كما راسل سفراءه للحديث مع السلطان حتى يسمح إجازة أسرة ابن الخطيب ، فاستجاب ابن الأحمر لطلبه سنة : ٧٧٣هـ (١٣٧١م) [2] .

على الرغم من ابتعاد ابن الخطيب عن غرناطة ، إلا أن حقد أعدائه لم يتوقف ، وظلوا متخوفين من عودته ، فأخذوا يسعون إلى الإطاحة به [3] ، والتخلص منه بصفة نهائية ، فأخذوا يراجعون ما كتبه أيام شبابه ، وكهولته، ولاسيما في كتابه (روضة التعريف في الحب الشريف) ، فاتهموه بالزندقة ، والخروج عن شريعة الإسلام ، وذهبوا إلى أن فيها طعناً في النبي صلى الله عليه وسلم ، ومجاراة لمذهب الفلاسفة الملحدين ، وروجوا في أوساط العلماء أن كتبه التاريخية الكثير منها هو من قبيل (الغيبة المحرمة) و كان زعيم ، ومُروِّج هذه الدعاية تلميذه ابن زمرك الذي خلفه في الوزارة ، وتولى تلفيق الاتهام ، وصياغته القاضي أبو الحسن النباهي ، وأصدر فتوى بضرورة إحراق كتب ابن الخطيب ، وتم إحراقها في منتصف سنة : ٧٧٣هـ ، وذلك بمحضر الفقهاء ، والمدرسين من العلماء ، و أماثيل الفقهاء [4] .

وما تجدر الإشارة إليه أن القاضي النباهي كان من أنصار ابن الخطيب ، ومن أشد المدافعين عنه ، والمحبين له ، وتعيينه قاضياً للجماعة تم على يدي ابن الخطيب ، وفي كتاب (الإحاطة) نلفي ترجمة متميزة له وضعها

---

[1] محمد كمال شبانة : مقدمة كتاب معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار للسان الدين بن الخطيب ، ص : ١٧ وما بعدها .
[2] جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٢ ، ص : ٢٢٥ .
[3] محمد عبد الله عنان : مقدمة كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة ، ص : ٣٦ .
[4] ينظر : ابن خلدون : كتاب العبر ، ج ٧ ، الخبر عن مقتل ابن الخطيب ، ص : ٤٠٤ وما بعدها .

ابن الخطيب ، ووصفه فيها بأحسن الأوصاف ، وبعد أن خبا نجم ابن الخطيب وقف النباهي إلى جانب ابن زمرك ، وصار من أشد خصومه [1] .

وقد وجه النباهي رسالة إلى ابن الخطيب ملأها بمثالبه ، واتهمه بالإلحاد ، والزندقة ، كما عهد إلى قضاة غرناطة يطالبهم باستصدار حكم الإعدام فيه ، وحصل على موافقة السلطان ، وبعث القاضي أبو الحسن نوابه إلى السلطان عبد العزيز لمطالبته بتنفيذ الحكم في لسان الدين ، غير أن السلطان رفض ذلك [2] ، وخاطبهم قائلاً : (هلا أنفذتم فيه حكم الشرع وهو عندكم ، وأنتم عالمون بما كان عليه) كما بالغ السلطان عبد العزيز في العناية بابن الخطيب وإكرامه ، ومما يُذكر أن ابن الخطيب قد طالب السلطان عبد العزيز بضم غرناطة إلى مملكته بعد أن لاحظ قوة المغرب ، وبعد مدة قصيرة يموت السلطان عبد العزيز ، ويجلس على عرش المغرب ابنه (أبو زيان محمد السعيد) ، وهو ما يزال طفلاً ، وفي ربيع الآخر ٧٧٤هـ (١٣٧٢م) يستولى على السلطة الوزير (أبو بكر بن غازي) ، وفي هذه الفترة حاول السلطان ابن الأحمر الإيقاع بابن الخطيب ، وطلب من ابن غازي أن يبعث به إليه ، ولكنه رفض ، فتوترت العلاقة بين النظام القائم في فاس ، وغرناطة . [3]

وبعد أن كثرت الأقاويل في الوزير ابن غازي بسبب مبايعته لصبي صغير ، ألف ابن الخطيب كتاباً له وسماه بـ (أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام) .

بعد أن ساءت العلاقة بين فاس وغرناطة بذل ابن الأحمر جهوداً كبيرة لإسقاط نظام ابن غازي فأوغر صدور الأمراء المرينيين ، وحرضهم على الثورة، كما سعى إلى إقناع حكام الأقاليم ، ولاسيما منهم حاكم سبتة بأنه من الأحسن أن يكون الملك رجلاً عاقلاً راشداً ، لا طفلاً صغيراً ، وتم الاتفاق على تنصيب الأمير المريني (أبو العباس أحمد بن أبي سالم) ملكاً على المغرب ، وأن يكون محمد بن عثمان الوزير مستقبلاً [4] ، و قدم له مساعدات ضخمة للإطاحة بالحكم ، شريطة تحقيق ثلاثة مطالب رئيسة بعد نجاح العملية :

---

[1] ينظر : المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج ٢ ، مخاطبات ابن زمرك لسان الدين ، ص : ٧٥ وما بعدها .
[2] محمد كمال شبانة : المرجع السابق ، ص : ٢٠ وما بعدها .
[3] عبد المجيد التركي : المرجع السابق ، ص : ١٣ .
[4] ابن الخطيب : ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام ، ص : ٨٥ .

١- تسليم ابن الخطيب .
٢- تسليم الأمراء المناهضين لابن الأحمر .
٣- تسليم جبل طارق .

بعد أن وقعت بعض الحوادث بالمغرب الأقصى ، اندلعت الثورة ، وحدث الانقلاب الذي طالما سعى ابن الأحمر من أجل إحداثه ، وتم تعيين الأمير(أحمد بن السلطان أبي سالم) والياً على المغرب سنة : ٧٧٦ هـ (١٣٧٤م) .

ولم تمض سوى بضعة أيام حتى أمر بالقبض على ابن الخطيب ، وسجنه ، وذلك تنفيذاً لما تم الاتفاق عليه ، ووصل الوزير ابن زمرك تلميذ ابن الخطيب إلى فاس يترأس وفداً يحمل عريضة الاتهام ، وقد كان الوزير الجديد ببلاط فاس سليمان بن داود ، وهو واحد من ألد خصوم ابن الخطيب ، وتم إحضاره إلى المشور ، ومناقشته حول ما نسب إليه من الإدعاءات حول ما ورد في بعض كتبه ، وقد أفتى بعض الفقهاء بقتله ، وفي الليل دس سليمان بن داود بعض المرتزقة ، والأوغاد من حاشيته فدخلوا عليه السجن وقتلوه خنقاً ، ودفن بمقبرة (باب المحروق) ، وفي الصباح تم سحب جثته من جديد ، وإحراقها [1] ، ولذلك لقب ابن الخطيب بذي الميتتين ، كما لقب بذي الوزارتين ، أي السيف والقلم ، ويقال له ذو العمرين ، لاشتغاله بالتأليف ، والكتابة والتصنيف في الليل، وتدبير شؤون الوزارة والمملكة في النهار [2] ، وقد كان مقتله في أواخر عام : ٧٧٦هـ (١٣٧٥م) [3] .

وبخصوص العلاقة بين لسان الدين ابن الخطيب ، وأدباء عصره ، فيمكن أن نمثل لهذه العلاقة بشخصية الأديب الأمير إسماعيل بن يوسف ابن محمد بن الأحمر، فقد فصلها الباحث محمد رضوان الداية تفصيلاً دقيقاً ، وقدم متابعة تاريخية لها ، ولذلك سنستند إلى رؤيته المقدمة عن هذه العلاقة ، فهو يرى في البدء أن العلاقة بين لسان الدين ابن الخطيب ، وابن الأحمر غامضة لسببين اثنين :

(الأول : أن ما ذكره ابن الأحمر عن تلك العلاقة كان تلميحاً دون

---

[1] خير الدين الزركلي : المرجع السابق ، ج ٦ ، ص : ٢٣٥ .
[2] ينظر : بطرس البستاني : أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث ، ص : ٣٥ و ١٥٩.
[3] محمد رضوان الداية : دراسة وتحقيق : نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان ، ص : ٧٨ وما بعدها .

الإيضاح، والثاني إعراض لسان الدين عن ذكر إسماعيل بن الأحمر باسمه في أي موضع مما نعرف من مصنفاته ، فمنهجه في اللمحة البدرية، والكتيبة الكامنة ، وحتى الإحاطة يقتضي أن يذكر إسماعيل هذا فيها، أو في بعضها باعتباره من الأسرة النصرية ، أو ممن عنوا بالفقه ، والأدب ، والثقافة ، وما كان حظ إسماعيل هذا من لسان الدين إلا إشارة عابرة فيها من التنكير أكثر مما فيها من التعريف حين قال : (وليوسف هذا ابن يباشر خدمة السلطان) .

ولا نعلم شيئاً عن علاقتهما في الأندلس ، وعلى كل حال فإن ابن الأحمر غادر الأندلس قبل أن يحتل لسان الدين مكان أستاذه ابن الجياب بعد أن توفي في الطاعون الجارف سنة ٧٤٩هـ .

أما في المغرب ، فقد تردد لسان الدين على فاس مرات ، منها سفره سنة : ٧٥٥هـ ، قدم فيها من الغني بالله إلى أبي عنان ، ومنها إقامته في فاس ، وغيرها من المدن المغربية ، وقت لجوئه مع مخدومه النصري سنة : ٧٦١هـ ، وآخرها حين لجأ لسان الدين إلى البلاط المريني سنة : ٧٧٣هـ ، وكان دأب ابن الأحمر أن يتصل بالقادمين من وطنه ، يتسقط أخباره ، ويفيد علماً ، وأدباً . ومن ذلك ما رواه في نثير الجمان ، من أنه لقي أبا البركات البلفيقي (محمد بن محمد السلمي) لما قدم رسولاً من الغني بالله إلى السلطان المريني أبي سالم إبراهيم ، ولقي أيضاً لسان الدين، وقد ترجم ابن الأحمر لابن الخطيب مرتين في نثير الجمان ، وفي نثير فرائد الجمان ، وذكر نتفاً من أخباره متفرقات خلال الكتابين . ومما يؤسف له حقاً أن ترجمة لسان الدين مفقودة من كتاب نثير الجمان، وهي كما أظن أهم من ترجمته في نثير فرائد الجمان لأنها كتبت في وقت قريب من مصرع ابن الخطيب)[1] .

وقد مرت العلاقة بين ابن الخطيب ، وابن الأحمر بفترتين :

الأولى : شملت المدة التي سبق لجوء ابن الخطيب إلى بني مرين ، وهي مرحلة يصفها محمد رضوان الداية بالعادية (لا يشوبها شيء يعكر صفوها ، بل ربما كانت بينهما صداقة ، أو علاقة شيخ بمستفيد ، فقد سماه في ترجمته لمحمد بن محمد العريف الفرناطي (شيخنا ذو الوزارتين ابن الخطيب . . .) ، وقال في موضع آخر (وأنشدني في الحنين إلى الأوطان ذو الوزارتين الحاجب القائد الخطيب الفقيه الكاتب صاحب القلم الأعلى أبو عبد الله محمد بن الفقيه

[1] محمد رضوان الداية : المرجع السابق ، ص : ٨٠ وما بعدها .

الخطيب الكاتب أبي محمد عبد الله بن سعيد بن الخطيب السلماني الأندلسي بفاس بتشوق معاهده بالأندلس لما كان بالعدوة ، حين خلع عن ملكه مخدومه ابن عمنا السلطان الغني بالله محمد :

أُحِبُّك يا مَغنَى الحقوق بواجِبٍ وأقْطَعُ في أوصَـــافِـك الفُرِ أوقَاتِي
تَقسَّم منك التُربُ أهلِي وَجيرَتِي ففِي الظَهرِ أحيَائِي وفي البَطنِ أمواتِي

وقال في مقدمة ترجمته (أدركته وخاطبته وخاطبني . .) ، وهذه الأخبار كافية للدلالة على تلك العلاقة .

والثانية : تشمل مدة لجوء ابن الخطيب إلى بني مرين ، أو معظمها ، إذا سلمنا بما قاله ابن الأحمر من أنهما تصافيا بعد خصام . وقال ابن الأحمر في ترجمة لسان الدين في نثير فرائد الجمان بعد أن عظّمه ، ومدحه :

(لكن صل لسانه في الهجاء لسع ونجاد نطاقه في ذلك اتسع)

حتى صدمني ، وعلى القول فيه أقدمني ، بسبب هجوه في ابن عمي ملك الصقع الأندلسي ، سلطان ذلك الوطن في النفر الجني ، والإنسي ثم صفحتُ عنه صفحة القادر الوارد من مياه الظفر غير الصادر ، لأن مثلي لا يليق به إظهار العورات ، ولا يحمد له تتبع العثرات ، اتباعاً للشرع الكريم في تحريم الغيبة . .) .

وفيما عدا هذه الثغرة التي يقول ابن الأحمر إنه رأبها ، وفحوى كلامه تدل – بالطبع – على أن ذلك تم في حياة لسان الدين ، لأنه لا معنى للصفح عمن صار في الأموات دون الأحياء ، فإن مطالع كتب ابن الأحمر ، والنقول التي نقلت عنه يشعر بأن إسماعيل بن الأحمر لا يذكر لسان الدين إلا بالإجلال والإكبار حتى إنه لقبه بـ (شيخنا) . وقد خصص نحواً من ربع كتابه (نثير فرائد الجمان) لشعر ابن الخطيب ، ونثره ، وذكر كتبه ، وأخباره . ولكننا مع كل هذا لا ندري ما هو السر الذي جعل لسان الدين يُعرض عن ذكر ابن الأحمر ، وحدا به لأن يهمله هذا الإهمال المزري مع احتفاله بمن هم دونه)[1] .

القسم الثاني : التعريف بالكتاب : بواعث تأليفه ، ومنهجه ، وأسلوبه

[1] محمد عبد الله عنان ، مقدمة كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة ، ج : ١ ، ص : ٥٣.

النزعة الاجتماعية في الرواية العربية السعودية

الدكتور صهيب شكيل أحمد خان (دلهي – الهند)

إن الأدب لا ينمو بمعزل عن المجتمع ، كما أن الأديب بحكم طبيعته ومشاعره لا يستطيع أن يكون بمعزل عن التحولات التي تظهر في المجتمع الذي يعيش فيه . وقد ظهرت الرواية ، من بين الأجناس الأدبية والإبداعية ، أقدرها استيعابا لواقع المجتمع ومعالجة قضاياه ومشكلاته وهمومه وطموحاته ، وأكثرها ارتباطا بالبيئة الزمانية والمكانية ، وأمثلها طريقة لفهم طباع الناس وأفكارهم والكشف عن الغموض . وتتزايد أهمية الرواية على مرور الأيام بفضل صياغتها الفنية والفواية المضمونية ، ولكونها مرآة للمجتمع بكل تفاصيله المرضي عنها والمسخوط عليها ، كما يقول الناقد : رجاء النقاش ، أن الرواية عمل فردي من حيث الإبداع الفني ، لكنها عمل يتأثر بالمجتمع ويؤثر فيه ، ويعبر عنه من حيث القيمة الفكرية والاجتماعية [1] وهكذا يرى الكثير من المحللين أن الرواية انعكاس للمجتمع . وقد حظيت الرواية في الآونة الأخيرة باهتمام كبير من النقاد والدارسين والباحثين لدى المجتمعات المثقفة في كافة أنحاء العالم . ولعل مردها إلى أن الرواية ، بعد أن كانت لقرون عديدة وسيلة للتسلية والترفية وقضاء الوقت للمجموعة المرفهة من الناس .

إن القصة بما فيها الرواية – اليوم – من أوسع الأجناس الأدبية انتشارا وتداولا وأكثرها قبولا لدى المجتمعات المثقفة في كافة أرجاء العالم ، وقد كثر النقاش بين الباحثين حول ما إذا كان فن الرواية فنا مستحدثا عرفه الأدب العربي في القرن التاسع عشر ، أو كان له أصل عربي قديم ، فرأى البعض – وهم قلة – بأن الرواية فن غربي النشأة ولم يعرفها العرب في أدبهم القديم ، ولكن العكس هو الصحيح ، فالقصة بخصائصها وملامحها الفنية ذات جذور عربية قديمة وإن لم تتبلور بالشكل المعاصر على نحو ما يراه : محمود رداوي ، إذ يقول : فتراثنا العربي الديني والتاريخي والفكري والأدبي غني بالملامح القصصية . والقرآن والحديث النبوي مليآن بالحكايات والقصص والنماذج الشخصية

١- مجلة الفيصل ، عدد ٤٠، ص ٥٤

المتميزة والأحداث الشيقة والنهايات التي تحتمها ضرورة الحكايات.[1] فمن العرض السابق يمكننا أن نستنتج أن الرواية بمقوماتها وتقنياتها فن حديث في الأدب العربي وأنها تستمد مضمونها من البيئة المحلية التي تكتب فيها. وقد عرفها الأدب العربي في أواخر القرن التاسع عشر نتيجة للإتصال بالثقافة الأوربية وترجمة الروايات الغربية إلى العربية مثل "مغامرات تليماك" و "الياذة هوميروس" وغيرها على أيدي طلائع المثقفين العرب.

وظهرت في عام ١٩١٢م قبل الحرب العالمية الأولى، روايتان وهما رواية "الأجنحة المتكسرة" لجبران خليل جبران، وقد توافر فيها بعض العناصر الفنية الحديثة، و رواية "زينب" لمحمد حسين هيكل، التي وجدها النقاد جديرة بالاعتبار والتقدير وتناولوها بالنقد. وقد بلغت الرواية العربية ذروة نضجها وازدهارها من الناحية الفنية والموضوعاتية على أيدي كتاب الأربعينات والخمسينات من القرن القرن العشرين.

أما ظهور الرواية في المملكة العربية السعودية فقد سجل الباحثون البداية التاريخية للرواية السعودية بصدور رواية "التوأمان" لعبد القدوس الأنصاري في عام ١٩٣٠م. وهذه البداية تبعد كثيرا عن البداية التاريخية للرواية في لبنان ومصر حيث بدأت المحاولات الأولى في الثلث الآخر من القرن التاسع عشر، وذلك بفضل تواصلهما الثقافي والفكري مع الغرب ودخول الثقافة الأوربية وحركة الترجمة وانتشارها عبر الصحافة.

وفيما يخص ببداية الرواية السعودية – كأي بداية أدبية – فهي تبدو ضعيفة ومتواضعة من حيث المستوى الفني، ولكن ظهور العمل تحت مسمى الرواية في حد ذاته كان حدثا جديدا ومهما في الأوساط الأدبية في بلدان الحجاز وباقي أقطار الجزيرة العربية، التي كانت طوال الربع الأول من القرن العشرين تمر بعصور الضعف والانحطاط، وتغلب عليها حياة البداوة والفقر والعزلة والتنقل من مكان إلى آخر، ويعم الجهل والتقهقر أرجاءها. أما النشاط الأدبي العام في الثلث الأول من القرن العشرين فكان مقصورا على قرض الشعر في المديح والوصف الركيك. ويورخ الدارسون ميلاد الرواية الفنية في الأدب السعودي بظهور رواية "ثمن التضحية" لحامد دمنهوري في ١٩٥٩م، والتي تعتبر أول محاولة سردية في المملكة العربية السعودية، توافر فيها معظم عناصر الرواية الفنية الحديثة.

---

[1] – انظر دراسات في القصة السعودية والخليج العربي، ص ٦، ط ١، ١٩٨٤م

وقد أدت هذه التحولات الثقافية والإجتماعية إلى تحولات فنية في مسيرة الرواية ، وتعتبر فترة أواخر الخمسينات والستينات من القرن العشرين فترة التطور والنضج الفني ، إذ ظهرت على الساحة الروائية المحلية أسماء جديدة من الكتاب الذين كانوا على وعي بالتقنيات السردية ، وخاضوا غمار التجربة الروائية ، فأخرجوا الرواية السعودية من مرحلة البدايات المتواضعة إلى مرحلة النضج الفني ، ومن هنا ظهر عدد كبير من المثقفين والكتاب ذوي المواهب والقدرات الفنية الناضجة أمثال عبد الله الجفري وعبد العزيز المشري وتركي الحمد وليلى الجهني وغيرهم الذين حاولوا رصد هذه التحولات والتغيرات الاجتماعية والسلوكية والفكرية ، ومن هنا ظهرت محاولات إبداعية جيدة في أواخر الثمانينات والتسعينات تحمل مؤشرات واضحة على نضج هذا الفن لغة وأسلوبا ورؤية وبنية ، وتتميز بالجرأة غير المعهودة في الطرح الروائي .

لقد قطعت الرواية السعودية رحلة طويلة من البداية والتأسيس والتجريب والتجديد ، ابتداء من رواية التوأمان في عام ١٩٣٠م حتى نهاية القرن العشرين في عام ٢٠٠٠م ، وخلال هذه الفترة الممتدة لسبعين سنة ، صدرت ما يقارب مئتى رواية متفاوتة في مستوياتها الفنية والجمالياتية والموضوعاتية ، إذ بدأت بداية متواضعة تقليدية ، ثم تأرجحت بين الفنية والتقليدية ، ثم تحققت نوعا جيدا من التجديد وأخذت عددا من المناحي الفنية في المشروع التجديدي .

والجدير بالذكر أن الأدب العربي الحديث ولا سيما الرواية العربية قد تأثر بالآداب الغربية ومذاهبها واتجاهاتها المختلفة كالكلاسيكية والواقعية والرومانسية والخيالية والرمزية والوجودية وما إلى ذلك ، والأدب العربي السعودي فرع من فروع الأدب العربي ، وقد تأثر الكتاب السعوديون أيضا بالمذاهب والإتجاهات الأدبية الغربية ، فتحمل أعمالهم الروائية ملامح وخصائص بعض تلك المذاهب الغربية ، فالرواية السعودية لها بيئتها الخاصة وأوضاعها المختلفة من الغرب . ومعظم الأعمال الروائية في المملكة العربية السعودية منذ بدايتها التاريخية في عام ١٩٣٠م حتى نهاية القرن العشرين ، تبدو أكثر التقاصا بالمجتمع وأكبر تركيزا على الواقع المعاش ، وتطرح لكثير من الهموم والقضايا المرتبطة بالبيئة الإجتماعية المحلية وتحولاتها ، ولعل ذلك سبب خلو أجوائها من رواية الخيال العلمي والرواية البوليسية وقلة إنتاج الرواية التاريخية والرمزية وغيرها من المذاهب والاتجاهات الروائية .

وعندما نتفحص حصيلة الرواية السعودية ، نجد معظم تلك الروايات تسيطر عليها النزعة الاجتماعية ويتضح ذلك من خلال تركيزها على تصوير البيئة المحلية وتغيراتها ، وعنايتها بالمجتمع بما فيه من عادات وتقاليد وقيم موروثة ، واهتمامها بالذات الإنسانية وتجاربها ومشكلاتها وقضاياها . وقد اهتم الكتاب السعوديون منذ البداية التاريخية للرواية السعودية بتصوير حياة الإنسان ، ومعالجة قضايا المجتمع ، ورصد التحولات والتطورات التي طرأت في البيئة المحلية ، على الرغم من اختلاف كيفية المعالجة السردية والعناية بالمقومات الفنية من روائي للآخر ، فبعضهم [1] عنوا برصد المجتمع الحجازي في فترة ما بين الحربين العالميتين، ومعالجة القضايا الاجتماعية قبل أو إبان مرحلة النهضة أمثال قضية الابتعاث إلى الخارج ، والانفتاح على بيئات أجنبية وثقافتها وسلوكياتها المختلفة ، وما نتج عنه من تحولات جذرية في أفكار وسلوكيات المجتمع السعودي ، والزواج من أجنبيات وتفضيلهن على السعوديات ، وضرورة تعليم البنات وحاجة المجتمع إلى الفتيات المثقفات ، ودخول المرأة في الصحافة ، بينما عدد من الكتاب [2] الآخرين قد عني بتصوير المكان بما فيه من عادات وتقاليد وقيم موروثة ، وعلاقة الإنسان بالمكان ، وطيبة نفوس الناس في القرى والأرياف وحرفهم الشعبية واعتمادهم على الزراعة والأمطار الموسمية ، كما اهتم بعض الكتاب [3] بتصوير المشكلات الطارئة في المجتمع السعودي نتيجة الطفرة الاقتصادية التي شهدتها المملكة في منتصف السبعينات الميلادية ، ومنها الطمع في المادة والسعي الدؤوب خلف الجاه والمكسب والنفوذ ، والانتقال من القرى إلى المدن رغبة في المال والمكسب ، وكذلك قضية واقع المرأة في المجتمع السعودي وما تعانيه من قسوة الرجل وتسلطه ، والتعدد في الزيجات ومشكلة العنوسة والطلاق وغيرها .

١- انظر روايات "ثمن التضحية ومرت الأيام" للدمنهوري، و "سفينة الضياع و عذراء المنفى" لإبراهيم الناصر، و "لحظة ضعف ولا... لم يعد حلما" لفؤاد صادق مفتي، و "السنيورة" لعصام خوقير وغيرها.

٢- انظر روايات "لا ظل تحت الجبل" لفؤاد عنقاوي، و "سقيفة الصفا" لحمزة بوقري، ومعظم روايات عبد العزيز المشري، و "الموت يمر من هنا" لعبده خال وغيرها من الروايات .

٣- انظر روايات "غيوم الخريف ورعشة الظل" لإبراهيم الناصر، و "غدا أنسى" لأمل شطا، و "ليلة عرس نادية" لعبد الله سعيد جمعان، و "العدامة" و "السكر المر" لعصام خوقير وغيرها من الروايات.

وقد شغل واقع المرأة في المجتمع السعودي جانبا كبيرا من اهتمام الروائيين السعوديين – الرجال منهم والنساء – فطرحوا العديد من قضايا المرأة في أدوارها المختلفة من الأم والأخت والزوجة والبنت ، ورصدوا الحركة التعليمية المحلية للبنات من الكتاتيب وحلقات الدراسة في المساجد إلى انتشار المعاهد التعليمية المتوسطة والثانوية والعالية في كافة أرجاء البلاد ، وعالجوا المشكلات الناشئة عن عمل المرأة ، كما تطرقوا لظاهرة زواج القاصرات وقضية إرغام الفتاة على الزواج ممن لا تحبه ، أو ممن يكبرها في السن ، طمعا في المهور البالغة أو المنافع المادية الأخرى ، فقدموا نماذج المرأة السعيدة والمرأة البائسة والمظلومة والمرأة المكافحة والمتمردة وما إلى ذلك . كما ناقشوا القضايا والمشكلات الناشئة عن التقاليد الفاسدة والعادات المستحكمة في المجتمع ، بصدق التعبير وغاية الدقة والواقعية والحساسية الدينية والاجتماعية في أعمالهم السردية المتفاوتة في المستويات الفنية .

ومن نافلة القول أن الرواية تعد من أهم أدوات التعبير الأدبي عن المجتمع ، ومن يمعن النظر في حصيلة الرواية العربية السعودية متفاوتة في مستوياتها الفنية ، يلاحظ أن ميلاد الرواية في هذه البلاد كانت تلبية لحاجات اجتماعية عصرية ، ومع مرور الوقت وتكرار التجربة الإبداعية ونضجها في الممكلة ، لا زالت الرواية السعودية ملتصقة أشد الالتصاق بالواقع المعاش وقريبة منه ، وتقدم صورة صادقة للمجتمع السعودي وطموحاته وتحولاته الاجتماعية والمعيشية والثقافية .

بعد هذه الدراسة عن الرواية السعودية والنزعة الاجتماعية فيها وجدنا أن التجربة الروائية في المملكة العربية السعودية قطعت أشواطا مهمة من ناحية الإنتاج الروائي وتطور البناء الفني وتنوع الاتجاهات في معالجة القضايا الاجتماعية على نطاق واسع بصدق التعبير ، وحظيت باهتمام كبير من النقاد والباحثين والدارسين داخل البلاد وخارجها ، وظهر عدد كبير من الروائيين البارزين ذوي المواهب والقدرات الإبداعية الرائعة . وقد تميزت الرواية السعودية من النضج والتطور والتجديد بأساليبها الراقية ولغتها الفصيحة العذبة ذات المسحة الجمالية والخالية من الحشو والثرثرة . وفيما يخص بالموضوعات التي تناولتها السعودية فيمكن القول بأن النزعة الاجتماعية كانت وما زالت سائدة ومسيطرة عليها في كافة مراحل المسيرة الروائية في المملكة .

صور وأوضاع

الأطماع الاستعمارية
مصدر الاضطراب السياسي في العالم الإسلامي

الأستاذ محمد واضح رشيد الحسني الندوي

قبل حدوث تفجيرات ٩/١١ بمدة نشرت مجلة أوربية تقريراً عن العالم الإسلامي استعرضت فيه الأوضاع السياسية والاقتصادية، والصراعات الطائفية والمذهبية فيه، وعلقت عليها قائلة: " إن العالم الإسلامي يسيل دماً " . وكان هذا العنوان غريباً في ذلك الوقت الذي لم تكن توجد في العالم الإسلامي إلا نزاعات بين بعض الدول المجاورة، تؤدي إلى صراعات مسلحة مؤقتة، وهو أمر طبيعي، يحدث عادة في مختلف أنحاء العالم، ولا يخص ذلك العالم الإسلامي، وقد دارت رحى الحرب العالمية الثانية التي أتت على الحرث والنسل، بين الدول غير الإسلامية، وكان المسلمون فيها كغيرهم وقوداً؛ لأنهم كانوا خاضعين للحكم الاستعماري الغاشم .

وكذلك قبل حدوث الثورة في مصر عندما كان الوضع عادياً، نشرت مجلة " اكنومست " صورة على غلافها في بحر، تخرج منها رأس، ووضعت على هذه الصورة عنوان " عودة فرعون " ويدل ذلك على مخطط إحداث الاضطراب في مصر وتحويل الأحداث المؤقتة التي كانت قد أعدت قبل حدوث الثورة .

قبل الحرب الكونية الثانية جرت حرب كونية أولى، وكانت بين الدول الأوربية المسيحية، ثم قامت حركات النضال للحرية في الدول المستعمرة، واستخدم الاستعمار البريطاني والفرنسي أقسى وسائل القمع والكبت لإحباط هذه الحركات التحررية، وقدمت الشعوب المضطهدة أغلى تضحيات في سبيل الحرية، وسجلت الجزائر الرقم القياسي، وقد بلغ عدد الشهداء في سبيل الحرية مليون شهيد، علاوة على الجرحى، ثم

قامت حكومات وطنية ، لكنها كانت خاضعة للدول الاستعمارية السابقة ، فعملت عمل الوسيط بين الدول الاستعمارية والشعوب المقهورة .

وغرس الاستعمار في عهده في بلدان المسلمين التي كانت موحدة تحت راية الخلافة الإسلامية ، بذور الشقاق بإثارة النعرات القومية ، والوطنية ، والعلمانية ، والاشتراكية ، وانقسم العالم الإسلامي إلى دويلات صغيرة ، وخلف الاستعمار قضايا في معظم هذه الدول التي انقسمت على أساس القومية ، تفرق كلمة المسلمين ، وتمنعهم من الوحدة، وتركت بعض المناطق بدون تعيين حدود ، أو خطت حدوداً متنازعاً عليها ، ولا تزال هذه القضايا تثير قلاقل وصراعات بين الدول التي تحررت من الاستعمار .

لقد كان العالم الإسلامي أكثر تعرضاً للمخططات الاستعمارية التي تهدف إلى منع الاستقرار والتقدم ، وفي مقدمة هذه المخططات التي تؤدي إلى الصراعات ، دعم العناصر الطائفية التي تفرض سيطرتها على الشعوب بقوة السلاح ، ووسائل القهر والجبر ، بعد وصولها إلى الحكم في ثورات تسندها أو تخطط لها الدول الاستعمارية ، وبقيام هذه النظم السياسية التي تنعزل عن الأغلبية المسلمة ، وتخالف رغبات الشعوب في بلادها ، يستمر الصراع في هذه الدول ، وكلما وصل إلى الحكم رجال صالحون ، أو ظهرت إمكانية لوصول رجال مخلصين أو مصلحين إلى الحكم تآمرت هذه الدول لإقصائهم من الوصول إلى هذه المواقع للنفوذ ، لكي تستمر سيطرتها على هذه البلدان ، ولتجري الأوضاع في العالم الإسلامي حسب مصلحتها السياسية ، تتخذ أوربا إجراءات عسكرية ، أو تقوم بقلب نظام حكم لا يليق بمصلحتها ، وتزود الفرقاء المتحاربين بالأسلحة .

في الماضي جرت نفس المخططات السياسية في أوغندة ، عندما تولى عيدي أمين الحكم ، واتخذ إجراءات ضد الدول الاستعمارية ، فساندت الدول الاستعمارية الدول المسيحية المجاورة على غزو هذه البلاد جماعياً ، واضطر عيدي أمين إلى الخروج من البلاد وقضاء حياته في

السعودية منفياً .

مر الصومال بمجازر متكررة في السابق ، فقد جرت في تلك البلاد حروب أهلية وفي العهد الأخير عندما وصلت المحاكم الإسلامية إلى الحكم ، وضعت أوربا خطة لإحباطها ، وقد تمت لها السيطرة على الوضع ، واستقرت الأمور ، فألبت الدول الاستعمارية الدول المسيحية المجاورة ، وحملتها على الهجوم على البلاد ، والقضاء على هذه القيادة الجديدة ، وأخيراً جربت هذه الوسيلة في مالي عندما وصل الإسلاميون إلى الحكم .

ويدل ذلك على أن الدول الاستعمارية لا يرضيها الاستقرار في أي بلد إسلامي ، وتبحث عن أسباب التدخل في الشئون الداخلية بعذر من الأعذار .

ومثل الصومال قضية دار فور في السودان ، فقد اتهمت الدول الأوربية وأمريكا أن سكان المنطقة يتعرضون لأعمال القتل والتشريد ، فقد كانت أوربا تثير قبل ذلك قضية الجنوب ، وتساند المحاربين للاستقلال ، ثم انتقل اهتمامها إلى دارفور ، وقد غرست هذه الفتنة بريطانيا التي حكمت السودان ، فبينما ساعدت الجنوبيين بقولها أنهم مسيحيون ، قالت لسكان دارفور كما صرح البروفيسور مهدي إبراهيم مستشار الرئيس السوداني ، إنكم مسلمون حقاً ولكنكم لستم عرباً ، وان العرب يستغلونكم ، وغرسوا بذلك بذور الحقد ، على كل ما هو عربي ، ثم دربوهم وسلحوهم ،وأخيراً انفصل جنوب السودان عن الشمال، وكل ما حدث هناك كان بدعم أوربي ، وغطاء أمريكي ، وتأييد كنسي ويهودي .

إن تدخل الدول الأوربية الاستعمارية في الشئون الداخلية في البلدان الإسلامية هو السبب الرئيسي للاضطراب والقلاقل في العالم ، وأن القضايا التي خلفها الاستعمار وتربية أجيال القيادة السياسية وتسخيرها لخدمة مصالحها هي السبب المباشر لعدم الاستقرار في العالم الإسلامي .

إن الاعتماد على الغرب والولاء له لم يفد العالم الإسلامي إلا

تورطاً في المسائل ، واضطراباً في المجتمع ، وصراعاً بين الشعب والحكام، وقد تكررت هذه التجربة مع الغرب في بلدان كثيرة ، أقدمها تركيا التي قبلت سائر مطالب الغرب ، لكنها لا تزال تجتهد بدون جدوى للانضمام إلى الاتحاد الأوربي ، رغم العبودية الكاملة لأوربا ، وانقطاعها عن كل ما يمت إلى الإسلام بصلة رسمياً ، والالتزام بالعلمانية السلبية أي المنافية للإسلام ، وإعلان حكامها بأن دولتهم علمانية لا صلة لها بالإسلام . وقد دلت النتائج الأخيرة على تدخل العناصر الأجنبية في الانتخابات لتغيير اتجاه تركيا إلى إعادتها إلى وضعها الطبيعي .

وهذا مصير كل من فقد ذاتيته ، وآثر التبعية للغرب ، ومنحه الثقة الكاملة ، وبعد ذلك لا يرضى الغرب بهذا الخضوع التام بل يزداد تدخله في شؤون البلاد ، وتتغير ثقته بالقيادات السياسية ، وشكه وريبته بالشعوب الإسلامية .

ويدل على ذلك موقف الدول الأوربية إزاء الأحداث في العالم العربي ، وخاصة في الدول التي قامت فيها الثورات ، فقامت هذه الدول بفرض نفوذها على هذه الدول لتحويل الاتجاه إلى ما يخدم مصالحها ، وبذلك تتعارض مواقفها إزاء الدول التي تتعرض للاضطراب السياسي من ليبيا إلى سوريا .

ويتضح موقف الغرب إزاء العالم الإسلامي من تقرير مؤسسة راند الصادر في ٢٠٠٧/٣/٢٦م ، فقد وصف التقرير العالم الإسلامي عدواً رسمياً جديداً لأمريكا والغرب ، واقترح استراتيجية جديدة للتعامل معه ، وتشتمل هذه الإستراتيجية على اختراقه من الداخل عبر المسلمين أنفسهم من أنصار التيار الليبرالي من المفكرين والأكاديميين وحتى بالتعامل مع التيارات اليسارية والاشتراكية العلمانية مع استبعاد التعاون مع أي إسلامي سواء كان معتدلاً أو متطرفاً .

وصدق الله العظيم : " وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى " (البقرة : ١٢٠) .

إلى الإسلام من جديد

الإسلام هو الحلُّ

محمد فرمان الندوي

" الإسلام هو الحلُّ " و " الإسلام منهج الحياة " و " القرآن دستور الحياة " جمل تتردد على ألسنة العلماء والخطباء ، ويسمع صداها عامة الناس ، فيهتفون بمثل هذه الهتافات ، وكفاهم شرفاً وفخراً : لكن الإسلام ليس قولا فحسب ، بل هو عمل وتطبيق و صورة عملية للدين الإلهي ، وقد ثبت ذلك من حديث جبرئيل عليه السلام : الإسلام أن تشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان (رواه مسلم) ، فلا يتحقق معنى " الإسلام هو الحل " إلا بالصورة العملية الصادقة .

إن دراية معنى الإسلام (وهو الانقياد التام والطاعة الكاملة) تحل المشكلات ، وتفك العويصات ، فإذا أسلم المرء نفسه إلى الله لا إلى النفس ولا إلى الشيطان ، في سفره وحضره ، وفي حله وترحاله ، وفي منشطه ومكرهه ، وهو يظن أن كل شيئ في الكون يسبِّح لله عز وجل، وكان مخلصاً في مبتغاه، كان نصر الله حليفه ، بل كان الله له.

الإسلام الحقيقي يحمل تأثيراً كبيراً ، ويملك جاذبية وقوة ، فإذا نطق الكافر بكلمة الإسلام طهر من جميع الأثام ، وانتقل من عالم إلى عالم آخر، وأكرم برعب إيماني وهيبة ربانية ، تتلاشى أمامها القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وتذوب فيها الإعدادات الهائلة من الأسلحة المدمرة ، و الجنود المجندة ، قال صلى الله عليه وسلم : أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي ، منها : نصرت بالرعب مسيرة شهر . (متفق عليه) . وقال الله تعالى : فَإِن يَكُنْ مِّنكُمْ مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (الأنفال : ٦٦) .

لا شك أن المسلمين اليوم محاطون بأزمات متنوعة على مستويات مختلفة تُسلب حقوقهم ، وتغتصب ممتلكاتهم ، وتحتل أراضيهم ، وتداس كراماتهم، هذا ليس في بلد واحد ، بل في أكثر البلدان ، فيخيَّل إلى ضعاف الإيمان أن المسلمين لا يكونون مرفوعي الرأس ، كلا، لا والله ، إن مستقبل الإسلام كالشمس في رابعة النهار ، والمسلمون سيتنفسون الصعداء بهدوء وطمأنينة باذن الله تعالى .(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) (الروم : ٥) . وإن انتكاسهم وفشلهم في معترك الحياة يرجع إلى ضعف الإسلام وعدم التظاهر بشعائره .

هنا بشارات في التاريخ الإسلامي تدل على أن المستقبل للإسلام ، وهو الحل الوحيد للخروج من اللأزما ت :

(١) ومعلوم أن سراقة بن مالك حينما يطارد النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر رضي الله عنه وقت الهجرة ، فكان يعثر فرسه كلما همَّ متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال له النبي صلى الله عليه وسلم : يا سراقة ! كيف بك وسواري كسرى ؟ يقول أصحاب المغازي والسير : " والله وحده يعلم ما هي الخواطر التي دارت في رأس سراقة حول هذا العرض العجيب لكن الرسول صلى الله عليه وسلم كان واثقاً من أن هذا الحق لا بد أن ينتصر على هذا الباطل . " وقد تحققت هذه النبوءة في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأيقن سراقة بأن ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم حق ، وسيتحقق رويداً رويداً كل ما سجلته صفحات الحديث الشريف على صاحبها ألف ألف تحية وسلام ، لأن الإسلام هو الحل .

(٢) خرجت حليمة السعدية في طلب الرضعاء ، فبحثت عنهم كثيراً ، فلم تجد إلا محمد بن عبدالله (صلى الله عليه وسلم) الرضيع اليتيم ، ففي أول وهلة تركته لأنه يتيم ، لكن حينما لم تجد سواه ، اضطرت إلى أخذها ، وما إن وضعت هذا الصبي في حجرها حتى رأت البركة جلية في كل شيئ ، وقالت لها صديقاتها : يا حليمة ! لقد أخذت نسمة مباركة .

هكذا شأن الإسلام إذا دخل في شيئ غيَّره أيما تغيير ، لكن الناس اليوم يعتبرونه أفيون الحياة ، أو شيئا لا يعبأ به ، رغم أنهم إذا التزموا بتعاليمه وتمسكوا بآدابه ورأوا انقلاباً هائلاً في كل شيئ ، وشعروا بتغيير جذري في كل أمر ، كما كان الأمر مع حليمة السعدية، فإذا رجع الناس إلى أصلهم ، وعادوا إلى مركزهم زالت المشاكل والصعوبات ، وانكمشت العراقيل والعقبات .

الواقع أن الدين عند الله الإسلام ، وهو يحمل حلاً شافياً لجميع المشكلات ، فلم يكن عقيما في الماضي ، ولا الآن ، ولم ينهزم في الماضي ، و لن ينهزم إن شاء الله في المستقبل ، لأنه حسب تعبير أديب وداعية " رصيد الفطرة ، وإذا تعارضت الفطرة مع الحضارة فلا بد أن يكتب النصر للفطرة قصر الصراع أم طال " وقد يجتمع على الفطرة ركامات ، فلا بد من إزالتها بإدراك حقيقة الإسلام ، وتجديد العبادة والأخلاق والمعاملات ، (والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . (يوسف : ٢١) وقال : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ، إن الله قوي عزيز(المجادلة : ٢١) . فدعوتنا وشعارنا : إلى الإسلام من جديد . إلى الإسلام من جديد .

أخبار اجتماعية وثقافية

جولة علمية دعوية في جنوب كيرالا

بقلم : الدكتور عزالدين الندوي
محاضر ضيف ، قسم اللغة العربية ، جامعة كيرالا بتروفاندرام ، (الهند)

قام الشيخ الدكتور سعيد الأعظمي الندوي مدير دار العلوم لندوة العلماء بلكناؤ ورئيس تحرير مجلة " البعث الإسلامي " ، بجولة علمية دعوية في جنوب كيرالا في الفترة ما بين ١ و ٥ من شهر يونيو ٢٠١٥ م . ونزل الدكتور الأعظمي في المطار الداخلي بكوشين في الساعة الثالثة ظهرا فاستقبله الشيخ عبد الشكور القاسمي عضو المجلس الاستشاري لدار العلوم ندوة العلماء والأخ محمد الأنصاري الندوي رئيس مؤسسة مفكر الإسلام بكاليكوت .

حضر الشيخ الأعظمي في الاحتفال السنوي لتوزيع الشهادات للمتخرجين في الجامعة الكوثرية بمدينة آلواي التي أسسها المرحوم الحاج محمد زبير ، بعدما تأثر بالشيخ محمد موسى الكانجاري أمير جماعة الدعوة والتبليغ بكيرالا ، وحضر بعد العصر في الاحتفال السنوي للجامعة الحسنية بكايم كولم ، ويديرها الحاج عبد الستار سيت أمير جماعة الدعوة والتبليغ حاليا ، و تحدث الشيخ الأعظمي في الحفلة السنوية بدار العلوم الإسلامية أوجيرا ، ويرأسها الشيخ عبد الشكور القاسمي . وألقى الشيخ الأعظمي في هذه الحفلات الثلاث خطبة عربية مؤثرة شجع فيها العلماء الشباب بمسؤوليتهم الكبيرة التي تقع على عواتقهم وأهمية الدعوة في العصر الحاضر ونعمة الإسلام على العالم وميزة دعوته إلى التوحيد النقي من الشرك وحثهم على دراسات واسعة لإدراك تحديات العصر ومواجهتها في القرن الجديد بواسطة العلم والمعرفة .

تولى الشيخ عبد الشكور ضيافته في منزله ، وزار الشيخ الأعظمي مدرسة المرحومة للبنات يشرف عليها الشيخ عبد الشكور بزوجته جورية ، وتمكن الشيخ الأعظمي من زيارة أسرة الأخ الحافظ محمد إسحاق الندوي ساكن المدينة المنورة حاليا وبيت الأخ محمد الأنصاري الندوي أثناء سفره إلى مدينة كولم . وسعد الحاج عبد القادر والأخ محمد أنور بضيافة الوفد والسير في الزورق ، وعاد الشيخ الأعظمي الطبيب الحاج محي الدين طبيب الأعشاب المعروف وعم صاحب السطور أيضا .

ونزل في بيت الأخ جمال محي الدين الندوي الذي قام بجولة دعوية في طول كيرالا مع الشيخ عبد الله محمد الحسني المرحوم سنة ١٩٩٧ م ، وكان الأخ جمال الندوي قدم لضيافة أستاذه الجليل من الإمارات العربية المتحدة في هذه المناسبة .

زار الشيخ الأعظمي في اليوم الرابع جامعة دار الأرقم الإسلامية بقرية بووجل من مديرية تروفاندرام ، وقد تأسست هذه المدرسة في عام ٢٠٠٠ م ، حيث إن أول من تبرع لتأسيسها سماحة الإمام العلامة المرحوم أبي الحسن علي الندوي هو الذي شجع الأخ جمال الندوي وزملاءه في هذا المجال ، وقد اختار الشيخ المرحوم عبد الله محمد الحسني اسم دار الأرقم لهذا المعهد وألقى الشيخ الأعظمي محاضرة قيمة في المناسبة ودعى فيها إلى أهمية التوحيد والتمسك بالكتاب والسنة وتشرف الأخ عبد الرحيم الندوي بضيافة الوفد في منزله .

شارك في هذه الجولة العلمية الأخ شرف الدين الندوي والشيخ عبد الشكور القاسمي والأخ محمد الأنصاري الندوي والأخ العزيز محمد عبد الله الندوي رفيق الشيخ الأعظمي وكاتب هذه السطور أيضا . توجه الشيخ الأعظمي مع رفيقه عبد الله الندوي إلى لكناؤ صباح يوم الجمعة من مطار تروفاندرام ، ووصلا إلى لكناؤ في سلامة الله تعالى .

إلى رحمة الله تعالى :

(١) فضيلة الشيخ السيد شبير عطا الندوي في ذمة الله تعالى

لقد كان نبأ وفاة فضيلة الشيخ السيد شبير عطا الندوي صدمةً كبيرةً للأوساط العلمية والدينية ، وخاصة لأولئك الأصدقاء والمحبين الذين كانت لهم صلة قوية بهذه الأسرة العلمية الدينية العائشة في بلدة سلون بمديرية رأي بريلي بولاية أترابراديش (الهند) ، وذلك يوم الخميس ١٨ من شهر يونيو لعام ٢٠١٥ م الموافق ٣٠/ من شهر شعبان لعام ١٤٣٦ هـ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

كان الشيخ شبير عطا يُعرف بالشاه شبير عطا ، فإنه كان ينتمي إلى الجانب العلمي لهذه الأسرة الكريمة التي كان يمثلها العلامة المحدث الشيخ محمد حليم عطا (يرحمه الله تعالى) وكان من كبار المحدثين في الهند ، وكان يتميز بالعلم والتحقيق في جميع جوانب العلوم الإسلامية ، وقد شغل منصب شيخ الحديث في جامعة ندوة العلماء إلى عام ١٩٥٥ م من القرن المنصرم حتى يوم وفاته رحمه الله .

إن الراحل الكريم الشيخ شاه شبير عطا قد التحق إلى دارالعلوم ندوة العلماء كطالب مع نهاية الأربعينيات من القرن المنصرم ، وظل يعيش مع والده الجليل العلامة المحدث الشاه محمد حليم عطا ، ويستفيد منه في العلوم والمعارف الإسلامية ، وتخرج في عام ١٩٥٣ م ، وعاش مع والده الجليل رحمه الله في دارالعلوم إلى أن توفاه الله تعالى ، فعاد إلى قرية سلون حيث جلس كعالم ديني يتناول الناس بالتربية الدينية وبنشر تعاليم الأخلاق والآداب في محيطه الخاص .

كان قوي الذاكرة ، فما كان يقرأ في كتاب إلا ويكون موضوعه وعباراته راسخة في ذاكرته ، كما كان غزير العلم وكثير الاطلاع على التاريخ الإسلامي العلمي ورجالاته من العلماء والمحدثين والمربين والمؤرخين، وقد خلف وراءه أسرة مؤلفة من الأهل والأولاد الأعزة والأقارب .

كانت علاقة أسرته بالأسرة الحسنية (في رأي بريلي) متينة وقديمة ، يتصل أصحابهما على أسس من العلم والدين والصلاح والورع ، ولعل ذلك هو السبب فيما إذا كان الشيخ شبير عطا يعتكف في جامعة ندوة العلماء بإشارة من سماحة العلامة الإمام الندوي (رحمه الله) من غير انقطاع ، ويقضي وقته في تلاوة القرآن الكريم ومطالعة الكتب العلمية

والدينية وإفادة المصلين الوافدين من المناطق المختلفة ، وأحياناً كان يبدأ الاعتكاف من العشرة الثانية لشهر رمضان المبارك .

تغمده الله تعالى بواسع رحمته ، وأغدق عليه شآبيب مغفرته وأكرم نزله في جناته وألهم أهله وذويه الصبر والسلوان . (والله ولي المتقين)

(٢) رحيل فضيلة الأخ الأستاذ السيد نصّار رفيع الندوي إلى رحمة الله تعالى

في ٢٠ / من شهر يونيو ٢٠١٥ م يوم السبت ٢ / من شهر رمضان لعام ١٤٣٦ هـ استأثرت رحمة الله تعالى بالأستاذ الفاضل السيد نصّار رفيع الندوي ، الذي كان يسكن في مدينة جدة بالمملكة العربية السعودية ، وكان مديراً للقسم الشرقي في الإذاعة السعودية بجدة منذ مدة طويلة ، حتى تجنس بالجنسية السعودية ، وبنى له هنا داراً ومضيفاً ، فكان يعيش مع عائلته ، وقد علم أبناءه في الجامعات السعودية حتى تخرجوا في التعليم العالي ، وكان أحد أبنائه قد تخرج من كلية الطيران المدني وتخرج منها طياراً انضم إلى الطيران السعودي ، وهو يعمل في البرامج الجوية للمملكة العربية السعودية .

كان الأستاذ نصّار رفيع أحد أبناء ندوة العلماء المتخرجين في عام ١٩٥٢ م من القرن المنصرم ، وكان أيام دراسته مبرزاً في الدراسة والخطابة ، وعالي الهمة في إنجاز دراسته ، فلما سافر إلى المملكة العزيزة التحق بإحدى مدارس مكة المكرمة وهي المدرسة الصولتية لصاحبها فضيلة الشيخ محمد سليم يرحمه الله تعالى ، وأحرز تفوقاً وشهرة في العلم والأدب حتى تيسر له الانضمام إلى أسرة الإذاعة السعودية بالقسم الشرقي بجدة .

وكان ذا اهتمام كبير برجال الندوة وعلمائها ، وخاصة كان يترقب فرص قدوم سماحة العلامة الإمام السيد أبي الحسن الندوي يرحمه الله ، ومرافقه العلامة الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي ومن معهما من تلاميذهما إلى المملكة ، ويكرمهم جميعاً ويقوم بالخدمات اللائقة دائماً ، وكان من سعادة حظي أن ألقاه كلما حصلت لي إقامة في جدة .

كان واسع الصدر والجبين ، ذا أخلاق أخوية عالية ، ومضيافاً لأهل العلم وأصحاب الصلات الأخوية والدينية ، فكلما كان يأتي إلى مدينة لكهنؤ يزور دارالعلوم لندوة العلماء ويعترف بما استفاده من العلم والدين والخلق الحسن فيها ، ويفرح بالتطور العام الذي أكرم الله سبحانه به هذه الجامعة العظيمة . (إنا لله وإنا إليه راجعون)

رحمه الله تعالى رحمة واسعة ، وغفر له زلاته ، وأسكنه فسيح جناته ، وألهم أهله وأصدقاءه وذويه الصبر والسلوان .

(٣) فضيلة الشيخ عبدالمتين الفاروقي إلى رحمة الله تعالى

انتقل إلى رحمة الله تعالى فضيلة الشيخ عبدالمتين الفاروقي حفيد إمام أهل السنة العلامة الشيخ عبد الشكور الفاروقي رحمه الله تعالى ، في ٢٤ / من شهر يونيو لعام ٢٠١٥ م الموافق ٦ / من رمضان المبارك ١٤٣٦ هـ ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

كان الراحل الكريم قد أصيب بحادث اصطدام قبل وفاته بأسبوع ، وقد حمل إلى المستشفى للعلاج ، ولكنه لم يُشف ، وغادر إلى ربه الكريم ، وصلى عليه ابن عمه فضيلة الشيخ عبدالعليم الفاروقي مدير دارالمبلغين في مدينة لكهنؤ مع حشد كبير من الناس ، ودفن في مقابر الأسرة الفاروقية .

رحمه الله تعالى رحمة واسعة وغفر له زلاته وأسكنه فسيح جناته وأكرم نزله فيها وألهم أهله وأصحابه وذويه الصبر والسلوان .

(٤) الشيخ محمد شمشاد الحسن والد الأخ جواد الحسن الندوي إلى رحمة الله تعالى

غادر إلى ربه الكريم الشيخ محمد شمشاد الحسن والد الأخ العزيز محمد جواد الحسن الندوي في ١٨ / من شهر يونيو ٢٠١٥ م الموافق ٣٠ / من شهر شعبان ١٤٣٦ هـ بعد أن كان مريضاً منذ مدة وكان يعاني من كبر السن بعض المعاناة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وذلك في وطنه ببرا لطيف بمديرية خاغريا بولاية بهار ، بالغاً من العمر ٨٣ / عاماً .

والأخ العزيز جواد الحسن الندوي موظف في مكتبة كلية اللغة العربية ، وهو من ولاية بهار تخرج في جامعة ندوة العلماء وأصبح مدرساً في أحد الكتاتيب التابعة لدارالعلوم لندوة العلماء ثم أصبح موظفاً في مكتبة كلية اللغة العربية منذ مدة . ونحن إذ نعزي الأخ جواد حسن في هذا المصاب . ندعو الله تعالى أن يرحم الراحل الكريم رحمة واسعة ، وغفر له زلاته وأسكنه فسيح جناته وألهم أهله وذويه الصبر والسلوان .

(٥) الأستاذ محمد وسيم خان الندوي إلى رحمة الله تعالى

فوجئت أسرة دارالعلوم لندوة العلماء بنبأ وفاة الأخ الكريم الأستاذ محمد وسيم خان الندوي يوم الاثنين في ١٨ / من شهر رمضان المبارك لعام ١٤٣٦ هـ الموافق ٦ / من شهر يوليو ٢٠١٥ م ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ،

وذلك في قريته ركن فور ، انهونة بمديرية أميتي ، بولاية أترابراديش (الهند) .

كان الراحل الكريم والد فضيلة الشيخ كمال أختر الندوي ، عميد كلية الشريعة بجامعة الإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد بمنطقة كتولي ، مليح آباد ، بجوار مدينة لكهنؤ ، وكان مريضاً منذ مدة يعيش مع أسرته في هناء ، وكان فرحاً مسروراً بنجابة أنجاله الأعزاء وخاصة نجله العزيز فضيلة الشيخ كمال أختر الندوي ، الذي يتميز بالعلم والفضل والعمل الخالص لنشر التعليم الديني والعصري ، وقد بنى له مدرسة إسلامية جامعة للعلوم الدينية والعصرية باسم منارالعلوم في قرية ركن فور ، وهو يشرف عليها كمركز للعلم والدين ، والدعوة إلى الله، ويدرس فيها عدد كبير من طلبة العلوم الدينية والعصرية ، يقوم بإدارته الأخ الأستاذ سلمان أختر الندوي ، وهو يعقد كل عام حفلة تعليمية يدعو إليها شخصيات بارزة من أهل العلم والبراعة في مجال التعليم ، كما أن للمدرسة مسجداً جامعاً جميلاً تابعاً لها ، وفيه مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم وتجويده ، وبذلك يبدو لكل زائر أنه في قرية تعليمية نموذجية .

وكل ذلك نتيجة لدعاء والده المغفور له ، رفع الله درجاته وغفر له زلاته وأسكنه فسيح جناته ، وألهم أهله وأنجاله وذويه الصبر الجميل .

(٦) الأمير سعود الفيصل آل سعود إلى رحمة الله تعالى

أفادت الأنباء أخيراً بوفاة الأمير سعود الفيصل آل سعود في ٩/ من شهر يوليو ٢٠١٥م الموافق ٢٢/ من شهر رمضان ١٤٣٦هـ .

وكان مريضاً يعالج في لاس انجلس بالولايات المتحدة ، حيث وافته المنية ، وقد حمل جثمانه إلى المملكة ودفن في المقابر العامة .

إنه شغل منصب وزير الخارجية للمملكة العربية السعودية إلى مدة أربعين عاماً ، وشهد عهود أربعة من ملوك المملكة وعمل خلال ذلك في مجال العلاقات الخارجية بالمملكة العربية السعودية .

وفي آخر أيام حياته كان قد انعزل عن منصب الوزير ، وكان قد سافر للعلاج وأثناء ذلك غادر إلى الآخرة ، تغمده الله تعالى بواسع رحمته وغفر له زلاته وأسكنه فسيح جناته وألهم أعضاء الأسرة الحاكمة ، وأهله وذويه الصبر الجميل .